د. محمد عبد الحليم غنيم

لن أقلع عن هذه العادة

قصص قصيرة

إهداء

إلي الفنان الروائي محمد جبريل

تحية تقدير وعرفانا بالجميل

محمد عبد الحليم غنيم

حكاية موت أبي

(١)

كان أبي مولعاً بالنساء ينتقل بينهن تنقل الفراشة من زهرة الي أخري مع أنه كان عفيفا . هذه معادلة رياضية صعبة الحل . وقد كان معجباً بجمالهن ، يضاحكهن ويغازلهن فى مرح ، لدرجة أنه كان يفعل ذلك مع بعض نساء قريتنا أمام أزواجهن ؛ لكن أن يحب أبي حباً حقيقياً ، فهذا ما لم يفعله حتى مع أمي .

فى الواقع لم يكن له أعداء ، إذ كان لا يؤذي أحداً البتة ، وربما كان له أعداء دون أن أعلم ! كانت هذه القلة الصغيرة تختلق الحكايات عن أبي لو صدقها أهل القرية ، وبالذات من تمسهم هذه الأكاذيب من قريب أو بعيد لأردوا أبي قتيلا لا محالة! .

لكن حدث مهم غير أبي : تحول ضحكه ومزاحه وإشراقه إلي حزن وكآبة وانعزال ، استدر الشفقة عليه من الكبير والصغير

فى قريتنا ، وأصبح كل من يتذكره يمصمص شفتيه فـــى تـــأثر ظاهر . كنت أري ذلك فأعجب لـــهؤلاء الذيـــن لا يريـــدون أن يتركوا الرجل فى حاله.

كان هذا الحدث مجئ خالتي حسنية إلي القرية .

كانت لي خالة شابة ، أسمها حسنية ، تزوجـــت مـــن رجـــل عجوز أكبر منها سناً ، لم تمكث معه سوي ثلاث سنوات ، ثـــم عادت لتعيش بيننا كواحدة منا ، كانت أسرتنا تتكون مـــن أبـــي وأمي ، وأنا ، وإضافة فرد آخر لا يؤثر فى نظام معيشتنا .. ثـــم أنها خالتى شقيقة أمى .

قيل أنها هربت من زوجها العجوز الذي لم تطق حياته ، لأنه يغير عليها (من هدومه) وأنها ليس لها ذنب فى ذلـــك ، أمـــا السنة السوء ، فكان لها رأي آخر ، إذ قالوا : أنها تحب شخصاً. أفندي من " البندر" قريب لزوجها كان يتردد عليهم كثيراً .

حاولت أمي – وأبي يؤازرها – أن تعود إلي زوجها (وبلاش فضايح) لكنها أصرت علي عدم العودة ، وكانت تردد فى كـــل جلسة: يسبني فى شرفى وأرجع له ؟! .. أبداً ..

بهذه العبارة القاطعة كانت خالتى تسكت كل من ســـولت لـــه نفسه أن يقنعها بالعودة إلي زوجها (والصلح خير) حتى أبي .. لكن يبدو أن أبي لم يحاول الضغط عليها . ربما لأنه لـــم يكـــن راغباً فى زواجها من هذا العجوز ، مع أنه رجل ظريف ، كثيراً

ما كان يجعلنا نمسك بطوننا من الضحك من نكاته اللاذعة .

أصرت خالتي علي الطلاق ، وتم لها ما أرادت .وكان يومـها كئيباً ، رأيت فيه أمي تبكي بصوت مرتفع ، وقد بكيت لبكائـــها أما خالتي فكانت تخفى شعوراً حزيناً فى أعماقها ، حـــاولت أن تبدو طبيعية ، فكانت كمن فقد جاراً غير عزيز عليه . حاول أبي أن يخرجها من حزنها .. داعبها فاستجابت بعد وقت قصير .

– ٢–

الأيام كالرياح ، وخالتى حسنية تعيش بيننا ســعيدة هنيئــة ، ونحن أيضا سعداء بها ، تشيع فى البيت جوا من المرح ، تســهر معنا إلي ساعة متأخرة من الليل أمام التليفزيون ، وعندما ينتــهي الإرسال ندير الكاسيت ، وفى كل هذه المرات كان أبي يشــاركنا بمزاحه ومداعباته ، ويبدو أنه كان أسعدنا جميعا أضحي يطيـــل الجلوس فى البيت علي غير مألوف عادته ، فهو فى غالب الأيام يكون فى المقهي ، أو فى سهرات خاصة مــــع أصدقائـــه مـــن الرجال أما أهل السوء – سامحهم الله– فكانوا يدعون أنه يذهـــب إلي المدينة حيث النساء ..

جمال خالتي يزداد تألقا – هي بشهادة النساء قبل الرجال مـــن أجمل نساء القرية – فى كل يوم كانت تبرز من مفاتنها ما يثـــير أشد الرجال .. تحفظنا ، أضحت حديث القرية . وكان وجه أبـــي يزداد إشراقاً بينما تزداد أمي حزناً وكآبة ، رغم مداعبة أبي لـــها

من حين لآخر ، ورغم التصاقي بها حاولت أن أعرف السبب .. وجدت أمي تنظر إلي خالتي باحتقار إذ كانت تبدي استياءها دون تحفظ من ضحكاتها العالية – كانت لخالتي حسنية ضحكات رنانة مثل ممثلات السينما – وكنت أعجب لتقبل خالتى اســتياء أمــي بصدر رحب ، فقلما كانت تعلق علي تصرفات أمــي (وهــي أختها الكبيرة مهما يمكن) هذا فقط ما كانت تقوله .

لم يعد أبي يخرج كثيراً من البيت .. افتقده أصحابــه وهــم كثيرون . جاءوا ليسألوا عنه ، فكان يتعلل لهم بحجج واهيــة . وكثيراً ما كان يجعلني أخرج لأقول لهم أنه ليس موجوداً ، وأنــه ذهب فى مشوار بعيد، ولن يعود إلا بعد عدة أيام . كانت أمــي تلاحظ ذلك فتكاد تنفجر غيظاً ثم تغرق فى الصمت .. هل لأنــها لا تحب الكذب ؟ ربما .

-٣-

هل كانت خالتي شريفة كما كانت تدعي ؟ لا أعرف سوى أن تصرفاتها لم تعجب أمي ، وهي أختها الكبرى ، وامرأة مثلــها ، والمرأة أدري بالمرأة وفى القرية الآن حديث تلوكه الألسن فــي تلذذ وشهية إنها حكاية أبي وخالتي حسنية . فليكن ما يكــون ، وليختلقوا الحكايات لن اصدق أحداً ، حتى أمي لن أصدقــها إذا تحدثت بمثل هذا الحديث ، وهي لم تتحدث فى الواقع .

ثلاثة شهور مرت علي طلاق خالتى حسنية ، ويســير فــى

القرية الآن حديث أشد إثارة من سابقه : لقد شاهدوا أبي وخالتي وهما يخرجان من عند طبيب أمراض النساء فى البندر – قريتنا تعرف أطباء النساء جيدا – وأن ذلك حتما لعلة ، المهم أنهم أجمعوا على أنها حامل ، وأجهضت الحمل . ومن كان يشك فى ذلك يؤكد أنها حامل من الأفندي الذي كان السبب فى طلاقها . أما العجوز فالكل يعلم أنه لا ينجب .

مساء ذلك اليوم عاد أبي مهموماً كئيباً ، ولم تكن خالتي حسنية أقل كآبة منه . لكن يبدو أن كآبة خالتي حسنية كانت تذوب فى جسدها اللدن ووجهها الشمعي الرقيق ، أكاد أجزم أن هذه الكآبة أضفت علي خالتى لمسة جمال علي عكس أمي المسكينة التى أصبحت تحدث نفسها هذه الأيام .

الوقت كالماء الراكد فى مصرف قريتنا جامد نتن ، ولسان القرية لم يهدأ بعد ، أبى كئيب وأمي نحيلة – كانت فوق ذلك مريضة – وخالتي تفقد تدريجياً جمالها فتحول إلي الشحوب ، وللكآبة لمسة جمال زائفة – كنت أسأل نفسي : ما علاقة الكآبة بالنحول بالشحوب ؟ ولم يتراكم كل ذلك فوق أمي ؟ طبيب يخرج وطبيب يدخل .. آه يا أمى المسكينة ! لقد عرفت سر هذه العلاقة إنه الموت !

كنت أشعر أن خالتى هي السبب فى موت أمي رغم أن الطبيب أكد أن موتها كان بسبب مرض عضوي خطير ، إنه شعور لا أكثر مثل شعورى الآن نحو خالتى بالضيق .

الحزن فى القلب ، ولا بد للماء الراكد من حجر ثقيـــل كـــي يتحرك – وخالتي حسنية ترتدي الأسود أمـــي مـــاتت وحســـنية خالتي لم تزل جميلة .. جاء أصدقاء أبي القريبـــون وعرضـــوا عليه أن يتزوج من حسنية خالتي ، ولم أجـــد أنـــا فـــى ذلـــك غضاضة.. لأن الحزن مثل الوقت كالريح .

لكن أبي خيب آمالهم ، ورفض الزواج من خالتي حســـنية .. ولما أبديت له موافقتي ، وأن من حقه أن يتزوج ، وخالتي لـــم تزل جميلة ، وخالتي .. وخالتي ..ابتسم ، كمـــن فقـــد شـــرفه ابتسامة صفراء ثم قال :

– أنت .. يجب أن تعرف أن خالتك ..

ولم أدعه يكمل ، كان يتألم ، ألمحت إلي حكاية الأفندى قريب زوجها ،وحكاية طبيب النساء ، فأومأ لي بالموافقة فى أســـي ، ودمعة تكاد تظفر من عينيه ، ولكنها لم تسقط .. وكنت أعـــرف أنه سيموت مثل أمي ، لقد مات أبي بعد أيام قليلة .

ورقة فى شق حائط

من دون الجميع أو لانى ثقته .. لكن لماذا أنا بالذات ؟ .. أنـــا أرجع ذلك لسببين أولهما ما عرف عني بأني كتوم لا أكشف سرا . وثانيهما اعتقاده أنني أعرف فى مثل هذه الأمور أو بـــالأحرى خير من يعرف فى هذه الأمور . ونحن المتعلمين فى القـــري - يبالغ أهلنا فى احترامنا وتقديرنا ، لذلك ندهش عندما نري أهـــل المدينة بأحذيتهم اللامعة وذقونهم الحليقة الناعمة يعاملوننا بنفـس قسوة وسائل المواصلات عندهم . قال وقد بدا أنه يخفـــــى فـــى صدره أمرا عظيما :

- كنت أخشي ألا أجدك .. أحملها فى طيات ملابســـي منـــذ أكثر من شهرين . كان مضطربا أشرت عليه أن يجلـــس كـــان شاحب الوجه ، عيناه الغائرتان فى محجريهما بدا بياضهما شديد

الصفرة . جلس بجواري خلف المنضدة الطويلة أزحـــت كتابـاً كنت أقرأ فيه بعيداً ، تطلع إلي الباب ، فقمت وأغلقته ثم عـــدت إلي مكاني لأجده وقد فرد أمامي ورقة متســخة مكتوبـــة بخـط ردئ ، أرجل طيور مختلفـــة الأشـــكال والأحجـام ، أو كتابـــة فرعونية رديئة لتلميذ مصري قديم خائب .. أيقنت من البدء أنني لن أستطيع قراءتها .. الورقة لا تتعدى مساحتها نصف ورقـــة فولسكاب ، ليس بها مكان خال من الكتابة لون الحبر فيها أزرق غامق يوحي بالكآبة ، وتكاد تكون خالية من الإعجام وعلامـــات الترقيم ، آثار طيها تؤكد أنها كتبت منذ فترة طويلة .

- لقد وجدتها فى شق الحائط مطبقة هكذا .

وكان قد أعاد طيها كما وجدها ، تناولتها مـــن يـــده وبـــدأت أفردها أمامي .. بدت لي طلسماً مغلقاً قلت :

- هل تعتقد فى مثل هذه الأشياء؟ .. بدا لي أنه لـــم يســتمع لسؤالي فلم أسمع منه إجابة بيد أنه قال :

- ذهبت إلي الشيخ " سيد " وقال لي بللها فى الماء .

أطرقت قليلا ، وعرفت أنه لم يكن لسؤالي معني ، ثم قلت :

- ولماذا لم تفعل ؟

- قلت آتي إليك أولاً .. أنت متعلم .

حدقت فى الورقة دون تعليق أســـتطيع - الآن - أن أتبيـن

بعض الحروف والكلمات غير أنني لم أستطع قراءة سطر واحد بأكمله لاحظ اليأس فى عيني فقال يحثني :

– لم أنم منذ شهرين .

ملت إلي تصديقه ، خاصة وهالتان سوداوان قاتمتان تحيطان بعينيه وقد رأيت أن شيئا واحداً يريده .. أن يطمئن .. لكن لماذا أنا بالذات من دون أهل القرية ؟ وأحاطنا مد من الصمت طويل . وأخيراً وبعد جهد جهيد قرأت " بسم الله أشه أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله ولا إله إلا الله " ثم توقفت أو بالضبط لم أستطع أن أكمل ، وكان وجهه قد امتقع ، وبدا لي أكثر اصفراراً مما توقعت لذلك تحاشيت النظر إليه ، وعلي الفور خطرت لي فكرة .. قلت :

– إن العمل لا يبدأ بالبسملة ..هذا حجاب ، انظر .

وأشرت إلي نهاية الورقة وأنا أقول : اقرأ . الحمد لله رب العالمين . أمين وكنت أعرف أنه يفك الخط ، ردد معي ما قلته ، وقد بدا عليه الارتياح غير أنى شعرت بغصة فى حلقي ، في الحقيقة أنا لا أعرف الفرق بين " الحجاب " و " العمل " كما أن معظم المكتوب لا أستطيع قراءته ، لقد كان الشيخ " سيد " علي حق عندما قال له " بللها فى الماء " قلت كتلميذ يتذكر إجابة سؤال لم يراجعه جيداً :

– إن لم يكن هذا حجاباً فهو عمل بصلاح الحال .

ثم أضفت :

- هل تصدقني ؟

هز رأسه ممنوناً ثم قال :

- أرحتني .

وأنا الذي لم يكن قد ارتاح بعد ، سألته :

- هل لك أعداء ؟

- أبدا

- من غير أهل بيتك وضع هذه الورقة فى شق الحائط

- لا أحد

- إذن ..

وكنت أقصد زوجته، وكان هو يدرك أن لا أحد غير زوجته، ثم بدأ يسرد لي كيف وجد الورقة مطبقـــة ومحاطـــة جوانبـــها بالصمغ فى شق الحائط ، نسج عليها العنكبوت خيوطه وأن هذه ليست أول مرة تحدث ولكنه كان يتجنب الحديث عنها - أقصـــد زوجته - كنت من جانبي أتحاشي الحديث عنها أيضا وكان علي أن استمع حتي النهاية ، وما كان لي أن أشرد بفكري بعيداً :

زوجته !

جاءت يوماً إلي هذا المكان وجلست فى هذه الغرفـــة وبكـــت أمامي طويلاً ، وقلت لها أصبري وأنها يجب ألا تيأس ، وهـــو أبدا لن يطلقك وهي ما زالت زوجته ، وأنها بين نســـاء القريـــة عملة نادرة وكان الضرب فوق جسدها الأسمر اللـــدن صلبانـــا وسيوفا ، ساعتها قالت :

- معمول له عمل .

- هل تعتقدين فى مثل هذه الخرافات .

ولما أطرقت طويلا ، وخيم علي الغرفة صمت أسود ، قلـــت لها :

- استري جسدك المكشوف .

ففعلت وابتسمت فى خجل لعوب ولم أعرف بعد ذلك كيـــف عادت له ؟ أو لماذا .. ؟ تنبهتُ لانقطاعه عن الكلام ، ورأيتـــه يتململ فى جلسته وحرت كيف اعتذر له .. وكانت الورقـــة لـــم تزل مفرودة أمامي .. قال وقد ضبطني اختلس النظر إليها:

- خليها عندك .. يمكن تنفعك .

وكأنه قذفني بمدية ، فزعت ، ولم أعرف بماذا أجيب ؟ تركت الورقة علي مضض فى مكانها وأنا أرفض بشدة بقاءها ، ولـــم أكن أعرف لماذا أيضا ؟ وكدت أصيح فى وجهه :

- لا أريدها . غير أنني لم أفعل شـــيئا . ثـــم قـــام واســـتعد

للخروج وعند الباب شد علي يدي فى امتنان – قائلا :

– طمأنتني .

ناديت علي أمي وعندما أخبرتها ، وعلمت بوجـــود الورقـــة لدي، دقت علي صدرها فى فزع ، وأسرعت تأتي بطبق به مـــاء لتذوب فيه الورقة . ثم قالت :

فى الصباح أخبر الشيخ "سيد " اللهم احفظنا .

ملكـــــة

ملكة هو اسمها سمراء ، نحيفة تلمع عيناها بـــبريق شـــقى ، نهارها فى الحقول بين أعواد الذرة أو شجيرات القطـــن تجمـــع الحشائش ، أو بين شتلات الأرز فى الميــــاه الضحلـــة المائلـــة للحمرة ، فدائماً هناك عمل .

كنا فى موسم جمع القطن عندما رأيتها لأول مـــــرة وكـــانت المدارس معطلة من أجل ذلك وكانت فرصة لكي أعمل وأحصـل علي قيمة مصروفات الكتب المدرسية وبالطبع مساعدة أمى فـــى مصاريف البيت.

جمعنا مقاول الأنفار من البيوت المتناثرة بين الحقول فى ذلك الصباح ، وكان قد أكد علينا فى المساء وأعطانا الأجرة . سـوت فى مجموعة من الأنفار إلي الحقل ، استلمنا صاحب الحقل مـــن المقاول ثم صفنا لكل واحد خط ، بحيث تكون الشمس خلفنــــا ،

جاء خطي بجوار خط ملكة ، فكان مكاني بين ملكة وجـارتي أم أحمد التى طلبت منها أمي أمس أن تأخذ بالها مني وتساعدنى أن احتجت ، وقبل أن نقطف أول ثمرة قطن مالت علـي جـارتي وحذرتني من ملكة ، حيث أنها سريعة فى الجمع وسرعتها هـذه ستجعلني فى ذيل الأنفار شكرتها بالطبع ويبدو أن ملكة لاحظـت ذلك ، فغمزت لي بعينها الجميلة الشقية ، وأخرجت طرف لسانها مشيرة إلي جارتي .

كانت جارتي أم أحمد تساعد طفلتها ولذلك أصبحت فى ذيـل الأنفار ووجدت نفسي أتأخر معها ، وأصبحت أنا الذي أسـاعدها ومع ارتفاع حرارة الشمس ازداد تراجعنا عن الأنفار وأضحـت خطوطنا الثلاثة تشكل مستطيلاً أبيض وسط شـجيرات القطـن المجموعة حولنا ، فبدأ صاحب الحقل يتذمر ويقول شدوا حيلكم ، ثم بدأ يصيح فى أم أحمد وينبه عليها ألا تأتي بطفلتها بعد اليـوم أما أنا فوجدت نفسي فى ورطة حقيقية العرق يتصبب من وجهي ومن أنفى ينزل سائل فأرشف وأمسح فى يدي وملابسي وأتلفـت حولي أو أنظر أمامي ويقول صاحب الحقل يـا ابنـي اشـتغل والمستطيل الأبيض يزداد طولاً وجارتي أم أحمد تلعن طفلتـها والزمن الذي أجبرها علي العمل عند النـاس والطفلـة تبكـي وصاحب الحقل يضرب كفا بكف ، ويقول لا حول ولا قـوة إلا بالله ، ثم بدأ يترك سائر الأنفار وشرع فى مساعدة جارتي التـى بدأت تبتسم لأول مرة وبعد قليل تحولت ابتسامتها إلـي ضحـك وعندئذ لمحت صاحب الحقل يمد يده إلي جارتي وها هو يقـترب

منها شعرت بالخجل والغيظ معا ، ماذا أقول ؟ كتمـــت غيظـــي ودفنت رأسي فى خطى ، كنت أشعر بقوة خفية تدفعني للابتعاد ، فلم أعد أساعد جارتي وبدأت أسبقها وفكرت فى ملكة وغمزهـــا عن جارتي ويا للمفاجأة بعد دقائق اكتشفت أن خطي شبه مجموع ، لقد كانت ملكة تجمع كل الثمرات التى تميل علي خطها وفـــي الأمام كان خطي مجموعاً تماماً ، وهكذا وجدت نفســي بجــوار ملكة أسبق الأنفار ، وجارتي وصاحب الحقل بعدة أمتار .

شكرت ملكة علي ما فعلته من أجلي ، فنظرت لي وابتسمت : هل كانت تعرف ما يدور بين صاحب الحقل وجـــارتي ؟ هــل أحكي لها ما رأيت ؟

بعد أن تناولنا طعام الغذاء ، استلم كل واحد منا خطـــه مـــن جديد ، المتقدم متقدم والمتأخر متأخر ، الآن الشمس فى ظهورنا أيضا ، ملكة بجواري نسبق الأنفار – أنا وهي – بعدة أمتار. كنا قد تحدثنا فى أشياء كثيرة فعرفت اسمي وأسماء أخوتي وإخواتي ولماذا أعمل ويبدو أنها كانت تعرف عني أكثر ما أعرف عـــن نفسي لأنها أكبر مني وحدثتني عن جارتي وصـــاحب الحقــل ، وكانت تفهم ما يدور تماماً ،وانفكت عقدة لساني وتمنيت لـــو أن المدارس تغلق وأظل أعمل طوال العمر بجوار ملكة ، ووجدتني اختلس النظر إليها من آن لآخر ، بينما تحدق هي فى وجـــهي ، مع الوقت لم أعد أختلس النظرات وكنا نبتعد مع الوقـــت عـــن الأنفار ونوغل فى الابتعاد وعند ذلك قالت ملكه:

أعرف ما سيقولونه عنا الآن وخاصة جارتي وفهمت قصدها، وأحسست برعشة في داخلي وهممت أن أقبلها ولكني تراجعت ، فقط اكتفيت بالنظر إلي عينيها ، ويبدو أنني أطلت في ذلك فصاحت تنبهني :

- اللي واخد عقلك .

فقلت في شرود :

- أنت .

كانت الشمس تميل نحو الغروب ، وبدأت تهب علينا نسائم رطبة ، وقلت في نفسي ما أجمل الحياة ! كانت ملكة في ذلك الوقت تجلس وتجر نفسها علي الأرض فجلست مثلها ومن حين لأخر كانت يدي تلمس يدها فأشعر بنشوة وأراها تجفل وتكاد تتراجع أو تقف ، واستمر تلامس أيدينا بقصد أو بدون قصد لا أعرف ، وفكرت في شئ ، من المؤكد أنه كان تفكير أطفال ، أن أقبلها وأجري ، ولكن أين أجري ؟ علي كل حال لم تواتني الجرأة ، فلم أفعل ذلك .

مع غروب الشمس تماما انتهي العمل وأفرج عنا صاحب الحقل بعد أن كدنا لا نري القطن بأعيننا تفرقنا وتناثرنا علي السكك الصغيرة بين الحقول ، وبجوار الترع كل إلي بيته وكنت أسير وحدي لا يجوز أن تسير ملكة بجواري ، لأن الناس ألسنتها طويلة أما جارتي وطفلتها فكان علي أن أصطحبهما فانتظرت

حتي لحقتا بي وسرت صامتا بجوارهما ، وجهت لـــي جــارتي نظرات عتاب ، إلا أنني لم أعرها اهتماماً ، كنت أفكر فى ملكـة والحقل الجديد الذي سنعمل فيه غداً ، لقد اتفقنا ضمنا أن نكـــون معاً دائماً ، إلا أنني كنت أخشي ألا يحدث ذلك .

فى المساء زارتنا فى البيت جارتي ، فأخذت تحكـــي لأمـــي وإخواني كل ما حدث فى الحقل طوال النـــهار ، ورددت علـــي لسانها اسم ملكة عدة مرات وكيف ساعدتني ولماذا ؟ وبالطبع لـم تذكر سبب توقفي عن مساعدتها .

فكانت تغمز بطريقة مكشوفة عن ملكة ، شـــعرت بـــالخجل وضحكت أمي وأخواني ومن ليلتها أصبح اسم ملكة يتردد فـــي بيتنا ، كلما هم أحد أن يداعبني ناداني باسم ملكة فكنت أضحـــك في البداية ، ولكن مع مرور الوقت كنت أغضب وأشعر بالغيظ ، تري هل تغضب ملكة إن نادها أحد باسمي ؟

رحـــلة

قمت مبكرا صباح ذلك اليوم ، بالضبط فى السادسة تماما ولم أكن قد نمت سوي ثلاث ساعات ، ارتديت بعد أن غسلت وجهي بالماء البارد ملابسي وشرعت مباشرة فى السفر . القاهرة لم تعد ذلك العالم الجميل المثير الغامض !

عندما نزلت من القطار ، كان علي أن أبحث عـــن أتوبيـــس يقلني إلي حي الزهور حيث إدارة السجلات العسكرية ، وهنـــاك سوف أجد عماد دسوقى ومعه ابن خالته الذي برتبة عميد فـــــى الجيش والذي سوف يساعدني فى الانتهاء من الحصـــول علـــي شهادة بدل الخدمة العسكرية ، لم أكن أصدق كل هذا ، وخشـــيتُ أن أظل واقفا فى ميدان رمسيس فلا أصل بالمرة ، سألت شـــابا بدا لي أنه ريفي مثلي :

– هل هناك أتوبيس يذهب إلي العباسية ؟

كان سؤالي بناء علي نصيحة زميل قال لي أنه علي أن أركب إلي العباسية ومن هناك آخذ أتوبيس رقم٦٠ (ستين بشـــرطة) فأنزل مباشرة أمام مبني إدارة السجلات التى سأجدها علي يميني وقال الشاب فى ثقه :

– تري هذا المبني الكبير .. قف أمامـــه وســتجد العربـــات متجهة إلي..

وأشار بيده وفهمت نصف فهم ، فتركته وأنا أقول لنفســي : عليك أن تسأل مرة أخري ، لا ضير ، وقرصني الجوع ، فأنا لم أفطر فحسب ، بل لم أتعشي أمس وقبل أن أبرح الميدان تمامـــا شدتني هذه الأكشاك المطليـــة بـــالألومنيوم ، فقلـت لنفســي : فلأشتري سندويتشا ، وكان الرجل يأكل ساندويتش الفـــول فـــي هدوء عجيب دون أن يعيرني أدني أهتمام ، غير أنـــي فوجئــت أنها أكشاك مبني هيئة النقل الخاصة بالمحصلين ، وحينئذ التفـت يسارا فإذا بي أمام أكوام المكرونة والبصل المقلي وإناء الصلصة الحمراء يتصاعد منه البخار الحار وفتاتين تقفـــان خلــف هــذه الأكوام ، فلم أتردد لأول مرة فـــي حيـــاتي واتجـــهت مباشـــرة نحوهما، دفعت ٢٥ (خمسة وعشرين) قرشا لطلبق ممتـــاز ، كانت الأسعار علي النحو التالي فوق لوحة ورقية ملوثـــة ربمـــا بفعل البخار والتراب وعادم السيارات :

طبق مكرونة ممتاز ٢٥ قرشا / طبق مكرونة عادة ٢٠قرشا/ طبق ..

أخذت بونا من عجوز كان يجلس فى أقصي اليسار لم أنتبه إليه فى أول الأمر وأعطيته للفتاه الأولي ، عانسا فى الثلاثين ، وربما كانت فى الأربعين ، هكذا قدرت ، ملأت الطبق فى بطء وبرود معا بينما أخذت أنا أتأمل علامات البؤس والشقاء الباديين علي وجهها المكدود ، وركبني هم غريب ، وتصاعد حزن من داخلي فى ثبات متواصل ، ويبدو أنني أطلت التأمل ، إذ نبهتني الفتاة الثانية ، التى كانت مقبولة الشكل ، فتناولت الطبق وبدأت آكل فى غير رغبة ، بعد ملعقتين اكتشفت أن المكرونة من النوع الردئ ، وفى الملعقة الثالثة تأكد لي أنني لن أستطيع الاستمرار فى الأكل ، فتركت الطبق ومشيت ، تخطيت الشارع وأخذت أنتظر ، وانتابني إحساس بأنني تائه فى هذه المدينة الكبيرة ، وطال انتظاري فتأكد لي مرة أخري أني تائه وسمعت منادي عربات السرفيس الصغيرة يصيحون : كيلو أربعة ونصف . الحي العاشر .. السجلات .. وهممت أن ركب واحدة من تلك العربات ، فتراجعت ، وإذا بأتوبيس يمرق أمامي ذاهبا إلي حي الزهور المرمى والهدف ، عدوت خلفه فلحقت به ، وخبرتي فى هذا المجال أحسد عليها ، قال الرجل خلفي : أدخل جوه ، وكان نصفى لم يزل بعد خارج الأتوبيس ، أدخل ، فقلت حاضر ، وقال المحصل : لو سمحت ، فقلت حاضر .. ثم عاد ليقول تذاكر دون أن ينظر إلي ، فأعطيته عشرة قروش فل يبق فى جيبي غير خمسة قروش ، ودهشت كيف يكون ذلك ؟

فأخذت أجمع وأطرح ، وقال : تحرك ، واكتشفت أن الحساب

مضبوط ، نقلت الجنيهين اللذين تبقيا معي إلي جيب القميص وهممت أن أمد يدي لأطمئن علي البطاقة فى الجيب الخلفي للبنطلون ، فصاح الرجل : فى المكان الذي تقرأ فيه الجريدة فأكتشفت أنه لا يحدثني ، ونظرت إلي الرجل البدين الذي يقف بجواري وقد تعلق بعمود مثبت بين أرض العربة وسقفها كالمصلوب ، فبادلني نظرة هادئة مطمئنة كسيرة مما شجعني أن أسأله من باب الألفة وليس من باب طلب العلم:

– هل يذهب هذا الأتوبيس إلي السجلات ؟

فقال :

– نعم .

وكان يحمل لفافة ورقية ، فخطر لي أنه موظف ، إذ كان يرتدي قميصا مقلما رخيصا ، من المؤكد أنه يعرف هذه الأماكن جيدا ، بدا لي الرجل أكثر طيبة وشعرت أنه متعاطف معي وقريب مني ، فقلت له فى بساطة :

– عندما نقترب من السجلات العسكرية نبهني

فقال الرجل فى برود أدهشني :

– أسال الكمسري .

فقلت طيب وتملكني من جديد هم وحزن أحسست أنهما لن يفارقاني وكان الرجل ذو الوجه الأحمر السمين يقول : أسأل أي

سؤال وأنا أجيب عليه ، فرد عليه الآخـــر الـــذي كـــان أســـمر ممصوص الوجه : بحر العلم غريق ويؤدي إلي الإلحاد ، فقال : أنا أقول لك علي حسب علمي ، الجنة عند سدرة المنتهي ، وقال الرجل العجوز الذي أكد أنه حج فـــى العـــام المـــاضي : إنـــهم يسرقون الحجاج أثناء الطواف حول الكعبة ، وأمســـك بوســـط الرجل الذي يقف أمامه وقال هكذا وتحسس الكمر وصاح رجـــل آخر : أوعي يسرقك ، فأطلق الحاج كلمة بذيئة ، وقال الشـــاب الصغير : لا يجب أن تسأل عن أشياء هي فى علم الغيب ، طيب أين النار ؟ فقال الرجل المتعالم ذو الوجه الأحمر السمين : لـــم يصل علمي إلي ذلك ، سوف أبحث فى القرآن ، ونظـــرت فـــى ساعتي فإذا هي تعدت العاشرة والنصف ، فخشـــيت ألا أقـــابل عماد، وهممت أن أسأل المحصل ، فقال رجل فى أخر العربة :

- السجلات يا اسطي .

ولم يجب السائق ، ولكنني فوجئت بالرجل المتعالم ذي الوجه الأحمر يتحرك إلي الباب الأمامي ، فترددت فى التحرك خلفـــه ، لولا أنني لمحت عماد وابن خالته ينتظراني علـــي الرصيـــف ، فنزلت وأنا أشعر كأنني نجوت من الغرق .

بنت وولد

يختلط العرق بالدموع والتراب ، فتظهر خطــوط متعرجــة وبارزة علي وجه الطفلة الصغيرة تبدأ من أسفل العينين مباشــرة وتنتهي عند أسفل الذقن ن يختلط تراب الزقاق النــاعم وبشــعر الطفلة الأسود العذري فيحيله إلي الأسود الباهت ، تماما ، مثــل شعر عنزة طليقة فى الحواري والأزقة ، ويأتي الذباب ليعــزف سيمفونيته النهارية الطويلة ، طول أيام الصيف ، تبدأ بظــهور الشمس وتنتهي بغروبها ، لكن لا العرق ولا الدموع ولا الــتراب ولا حتي الذباب استطاعوا ، مجتمعين أو متفرقيــن أن يمحــوا لمسة البراءة المستقرة علي وجه البنت زنوبة ابنة سنية الشغالة .

فى نهاية الزقاق تقف زنوبة أمام بيت صغير ، مغلق دائمــا والشمس فى كبد السماء ترقبها فتحتمي منها بظل جدار البيــت الصغير ، لم تكن هناك أشجار فى الزقاق ، فقط هنــاك عشــش صغيرة تقف صامتة، محتجه أحياناً ، وراضية فى أغلب الوقت ،

وقبل أن تخرج سنية إلي حيث تعمل فى البيوت الناعمـــة غـــير الصغيرة ، تغلق الباب بالمفتاح بعد أن تكون ملأت جيب زنوبـــة بالخبز والجبن القريش أو السكر وأحياناً ببرتقاله وتكون أيضــــا القت عليها وصايا اليوم المعهودة .

– أوعي يا بنت تسيبي البيت وتلعبي بعيد .

– أوعي يا بنت الكلاب تخش البيت .

– أوعي يا بنت تلعبي فى الطين .

وزنوبة لا تعصي أمها إلا فى هذه الوصايا ، التى لم تســتطع أن تعمل بها ولو ليوم واحد ، تترك البيت الصغير وتسير فـــى الزقاق متسكعة ، وعندما لا تجد أحدا مـــن البنـــات أو الأولاد ، تلعب معه ، تقف هناك علي ناصية الزقاق تتطلع إلي بيت البيك فى الجهة المقابلة علي الطريق الزراعي التى تتوسط القرية حيث التفاح والبرتقال والسور العالي ، والولد أحمـــد والســت هـــانم والبوابة الحديدية العريضة ، وحيث أمها أيضا وإن كانت أخر ما تفكر فيه زنوبة .

لم تكن زنوبة لتجرؤ علي دخول البيت ، بيت البيك بناء علي أوامر البيك والست الهانم ، ولذلك قد تطول وقفتها هناك ، لكنها سرعان ماتعود إلي نهاية الزقاق حيث البيت الصغير المغلـــق ، وفى هذه الأثناء تكون الكلاب قد انتهت من جولتها فى البيـــت ، وخرجت وهي أسفه كالعادة فتذكر صوت أمها أوعي يا بنـــت

تلعبي فى الطين) لكن الطين .. آه والولد شحات همـــا ملاذهــا الوحيد فى هذه الدنيا ، بيد أن الولد شحات لم يعد يأتي كل يـــوم ليلعب معها ، أصبح يتغيب كثيراً هذه الأيام .

- ما بتجيش ليه نلعب سوا يا واد يا شحته ؟

- باروح الغيط .

- أوعي تروح

- أبويا يضربني

الولد شحات يعرف كل شئ : يصنع الأتومبيل من الطيـــن ، ومع ذلك يطقطق مثل الأتومبيل الحديد ، والماكينـــة ، ماكينـــة تدرس سنابل القمح .. أما هي فكانت تجيد عمل شيئين ، صنـــع العرائس ، والعسكري .. آه من هذا العسكري ، تعمل البندقيـــة وتعلقها فى كتفه ، وتصنع البرية وتضعه علي رأسه ثم تصنـــع الحذاء الثقيل فى قدميه لم يبق إلا الشارب ، والشارب مشـــكلة ، إنه مشكلتها الكبري ، قالت للولد شحات :

- فيه عسكري من غير شنب

فكر شحات .. ثم قال :

- لا

وقبل أن تقول زنوبة شيئا ، أضاف فى سرور :

–لما أكبر حا يبقي لي شنب

ابتسمت زنوبة مؤيدة قوله ، ومن يومها وهي لا تزال تحـاول أن تصنع للعسكري شارباً .

هذه هي المرة الألف التى ينكسر فيها شارب العسكري مـــن يدها غير أنها لم تيأس . كورت زنوبة العجينـــة الطينيـــة مــن جديد، وأخذت تفكر كيف تجعل شارب العسكري لا ينكسر هــذه المرة ؟ لكنها توقفت فجأة عن التفكير واللعب ، كانت تتطلع إلــي القادم عند مدخل الزقاق ولم يكن القادم هو الولد شحته وإلا مـــا توقفت ، كان القادم هو الولد أحمد ابن البيك والســـت هـــانم – عندهما تعمل سنية أمها ، أحمد ولد جميل أبيض مثل القمر ليلـــة تمامه لولا عيناه المكحلتان بكحل رباني ورغم ذلك أصرت الست هانم – كما تسميها زنوبه ، لأنها لا تعرف اسمها الحقيقي بـل لا أحد فى القرية يعرف اسمها الحقيقى – بعد أن ارتدي البيجامـــة التروكلين المقلمة أن تكحل عينيه ، اعترض الولد فى البدء بشدة تؤازره العجوز جدته ، لكنه استسلم للأمر الواقع فـــى النهايـــة وعندما نظر فى المرآة كان راضيا عن نفسه وعن ماما ، ولـــم تكتمل زينة الولد بعد ، فمن دون أن يشعر الولد، مررت الســت الهانم أصبعها علي شفتيها الملتاكتين بأحمر الشفاه ثم مرت بـــه علي شفتي الولد الندية أعقبتها بقبلة عندما لاحظت العجوز ذلـك، علقت فى لهجة غير جادة .

– عيون الناس وحشة يا بنتي

ضحكت الست هانم وهي تنظر إلي نفسها فى مـــرآة كـــانت بيدها .. وقالت ، بقي بالذمة يا ماما ما أحمد طالع لي ؟

كان الولد يقترب من البنت وكانت هي ما زالت تتطلع إليـــه ، وعندما اقترب منها ولم يفصلها عنه سوي خطوات قليلة ، بـــدا أنها نسيت العسكري والبندقية والبيرية والحذاء الثقيـــل ، حتـــى الشارب نسيته . إذ خطرت لها فكرة هل تستطيع أن تصنع مـــن الطين ولداً جميلاً مثل أحمد ؟ كان العجينة الطينية لا تزال فـــي يدها غير أنها جفت قليلاً .اقترب الولد من البنت تماماً ، ثم وقف بجانبها ، كان صامتا صمتا طفوليا ، مبهما ، وكانت هي ذاهلـــة ذهول الكبار ، دارت حول الولد دورة ، وهو واقف لا يتحـــرك ، كان فقط يبتسم بين لحظة وأخري ، فكان يزداد فى عيني البنـــت جمالا وتصبح الفكرة علامة استفهام كبيرة ومبهمة .

أفاقت البنت من ذهولها فتحت يدها لم تجد شيئا نظرت إلـــي الأرض ، كانت العجينة الطينية تحولت إلي فتافيت صغيرة جافة حول قدميها وتلاشي بعض منها بالقرب مـــن قدمـــي أحمـــد ، لاحظت أن أحمد سيدوس علي العروس التى صنعتها من قبـــل ، فأبعدتها ، وأيقنت استحالة صنع ولد جميل مثل أحمد .. ابتســمت لأول مرة وقالت فى سرور بالغ :

– تيجي نلعب سوا ؟

فأجاب الولد علي الفور :

- عروسة وعريس

أدهشت البنت إجابة الولد ، لم يكن يخطر ببالها ذلك ، صحيح أنها تلعب هذه اللعبة مع شحات فقط ، وشحات غـائب إلا أنـها رحبت بالفكرة ، أضاف الولد مرغباً البنت فى اللعب :

- زي بابا وماما .

وهي تعرف ماما وتعرف أن ماما تعني أمي ، وأن أمي تعني سنية أما بابا هذا فلا تعرفه . قالت أمها أنه مسافر ولن يعـود ، وهنا سألت نفسها لماذا لن يعود ؟ وتعرف الولد شحات ، وهـو يلعب معها هذه اللعبة ، هو العريس ، هو لم يأت اليوم ، ولكنـه سيأتي فى الغد أو بعد غد ، المهم أنه سيأتي . شـحات يصنـع الأوتومبيل أبو عجل ويضع فيه المللح ويشعله بالكبريت فيطقطق مثل الأوتومبيل الذي يركبه أحمد . شحات مثل أحمد .

ابتسمت العروس ثم جلست علي الأرض وشرعت فى بنـاء البيت " البيت هنا مساحة صغيرة لا تزيد عن المـتر ونصـف المتر المربع ، تحاط بسياج ترابي نـاعم يرتفـع عـن الأرض بمقدار ارتفاع قبضة اليد " كان العريس لا يزال واقفـا وكـان مندهشا لما تفعله زنوبه تطلعت إليه ثم قالت فى مرح :

- روح هات السرير والدولاب وأكون أنا خلصت البيت .

لم يكن أحمد يعرف أن السرير قالبان من الطوب اللبن ويـا

حبذا لو كان من الطوب الأحمر ، يفرشان بعدد قليل من العصي الصغيرة ، وأن الدولاب قالب صغير أيضا ، علي شكل صندوق، توضع فوقه قصاصات عدة من قماش ، ولم يكن يعرف أن السرير والدولاب علي بعد خطوات منه وما عليه إلا أن يحني ظهره قليلاً ويسير تحت الشمس قليلاً قال الولد في أسف ظاهر :

– السرير تقيل وماما نايمة عليه ، والدلاوب كبير ومليان هدوم!

توقفت العروس عن العمل ، وكانت قد انتهت تقريبا من بناء البيت ، إندارت له جاثية علي ركبتيها وعلي أقصي اتساعها فتحت عينها ومن دون أن تدري فتحت فمها لتظهر أسنان تآكل نصفها بفعل سف السكر .

(لم تكن زنوبه تسرق السكر ولماذا تفعل ذلك وأمي تعطيها كل يوم حفانا فوق اللقمة .. ثم أن السكر عند البكوات كثير) بينما غطي التراب النصف الباقي السليم مع جزء كبير من اللثة.. ثم أخذت تتطلع إلي الولد في إشفاق : الولد أحمد لا يفهم لا يعرف لعبة العروسة والعريس . الولد أحمد نظيف . الله هدومه حلوة ، شعره حلو ، أسنانه حلوه ، صندله حلو ، قالت :

– بلاش سرير وبلاش دولاب .

كان الولد لا يزال يتطلع إليها هو الأخر ، وكان واقفا خارج

السياج الترابي ، أضافت حالمة :

– واقف بره ليه .. أدخل جوه .

الولد لم يفهم بعد !

قالت موضحة ومرغبة :

– ما تعرفش تلعب عروسه وعريس ؟

قال الولد فى مرح زائد :

– أعرف

ثم أقدم علي البنت ، وكانت لا تزال جاثية علـــي ركبتيـــها.. علي الفور ، أفاقت البنت من حلمها الوردي . فهمت ما يريـد أن يفعله الولد ، شبت البنت علي ركبتا دافعة الولد بعيداً عنها ، ثـــم ارتمت علي البيت فجعلته كومة واحدة عالية من الـــتراب فـــى لحظات . وفى لحظات أخري كان التراب الأسود الناعم يغطـــي بيجامة الولد النظيفة ، وشعره النظيف الناعم ، ووجهه الأبيض ، وجسمه النظيف .

شرع أحمد فى البكاء والسير عائداً إلي أمـــه فيمـــا شـــرعت زنوبة فى الهرب ، أخذت تجري تجاه الطريق الزراعية ، أكانت تعرف أن القادم علي بعد وراء الحمار المحمل بالتراب هو الولد شحات ؟

أم رفعت

كل ما فعله بعد أن ألقي بجسده الضئيل فوق الأريكة الوحيدة فى مدخل البيت أن ضرب كفا بكف ، ثم زفر زفرتين ، قابلتهما أم رفعت ببرود مصطنع ، ولاحظ هو ذلك فكاد أن ينط فى كرشها من شدة الغضب ، قال فى نفسه " إن هذه المرأة تعلم ما حدث ! " ، أما هي فدخلت فى نفسها وانتابها خوف كبير لما رأت الشر فى عينيه ، كان خبر طرده من العمل عند صاحب محل الجزارة قد وصلها منذ الصباح ، وقبل أن يأتي بعدة ساعات ، وكانت تنتظره طوال هذه المدة ، لا رغبة فى لقائه ، ولكن لأنها لا تعرف ماذا تفعل ؟ ، كانت تتمنى أن لا يكون الخبر حقيقيا ، اتجهت فى خطوات مترددة نحوه ، وفى حذر شديد جلست بجواره فوق الأريكة ، وقالت مدعية الجهل :

مالك يا أبو رفعت ؟ .. إيه اللي جري يا أبو رفعت ؟

لم يجب عليها ، ولم ينظر إليها أيضا ، ولم تشأ هي أن تعيـد السؤال ، ربما خوفاً منه ، وربما لأنها تعرف الإجابة ؟ وفجـأة أجهش الرجل كطفل صغير بالبكاء فقامت من جواره مذعـورة كأن مسها جان ، غير أن شعورين تداخلا فى نفسها شعور بالقوة والثقة تجاه هذا الزوج الخائب ، الذي لا يفلح فى عمل وشـعور بالعجز والخوار كامرأة بلا عائل ، لا حول لها ولا قـوة ، ثـم تمالكت نفسها وانسحبت فى هدوء وتركته إلي غرفة المعيشـة ، وتذكرت مرات عديدة كان يعود فيها مطروداً من العمل دون أن تعلم ، يقول : إرادة الرب ، فتقول : سـيموت الأولاد جوعـا ، فيصيح : ماذا فى يدي ، أقطع نفسي ، تقـول : الشـتاء علـي الأبواب ، سيموت الأولاد من البرد ، ثم ينتهي الحوار بعبارتـه المشهورة : فرج الله قريب .

لم توجه له أم رفعت هذه المرة أي لـوم أو عتـاب ، لاذت بالصمت مثله ، وانسحبت مثله إلي داخل نفسها ، ووجدت نفسها تقوم إلي المرأة وتلقي نظرة علي جسدها الذي ترهل وأردافـها التى ثقلت ، ثم أحست بآلام حادة فى ركبتـها إنـه المورتـيزم اللعين، ومع ذلك لم يزل هناك أثر لجمال قديم ، لفت رأسها إلـي الوراء فى حركة سريعة جابت كل أجـزاء جسـدها ، شـعرت ببعض الرضا ، فابتسمت ثم خرجت من الغرفة ، لتلقي علي أبي رفعت نظرة احتقار ، وجدته مكوماعلي نفسه فوق الأريكة مثـل طفل صغير ، قدماه صغيرتان رقيقتان تخرجان مـن أطـراف جلبابه الواسع ، ورأسه الأصلع الصغير فوق رقبته القصيرة كاد

يغرق فى ياقة الجاكيت الذي يرتديه فوق الجلباب ، لائذ بالصمت ، شارداً ، زفرت زفرة طويلة ثم عادت مرة أخري إلي غرفتها ، خلعت جلبابها ثم أخذت تستعرض أجزاء جسدها أمام المـــرآة ، كانت ترتدي قميصاً شفافاً قديماً بدا أنه استهلك منذ زمن بعيــد ، بدا علي نفسها الرضا وهي تســـتعرض صــور الرجــال فـــى الشوارع ينظرون إليها فى شبق ، لكــن ســرعان مــا انثــالت الذكريات الأليمة وحظها العاثر مع هذا الزوج الخائب ، لتســقط جثة هامدة فوق الأرض الخشبية المنقوشــة بــالحفر المتنوعــة الأشكال بفضل الصراصير والفئران والزمن ، أما هو فقد ســمع صوت ارتطام بالأرض ، ملعون المرض ، جري إلـــي البــاب الخارجي وصرخ ، ثم عاد مسرعا إلي الداخل يبحث لــها عــن كوب ماء..

وعندما وصل إليها فوجئ بعدد كبير من الجــيران ، رجــال ونساء وأطفال ، كان صدرها يعلو ويهبط تحت يد امرأة تدلكـــه بيد ، وتعصر علي أنفها الأحمر المتــورم الآن بصلــة بيدهــا الأخري ، وكان وجهها محتقنا بالدم ، بينما العرق فوق الرقبـــة السمينة وفى قاع الخدين الغائرين وأسفل تجويف العيـــن يلمــع ببريق كئيب ، تعرت فخذان ضخمتان ، وانكشفت أجزاء أخــري من الجسد الأبيض ، وقف مبهوراً أمام الجسد ، وكأنه أمام جسد امرأة أخري ، امتدت يد تشد القميص فوق اللحم العاري ، تنبه ، امتدت يد أخري تأخذ منه كوب الماء الملئ حتــــي منتصفــه ، تراجع للخلف خطوات ، وارتفعت أصوات تنـــادي : الطبيــب

الطبيب ، عندئذ فقط ، أفاقت أم رفعت قائلة فى صوت واهـن .. لا داعي لا داعي للطبيب .. أنا خفيت .

انسحب في هدوء وعاد أدراجه إلي الأريكة ، بينما بدأ النـاس يخرجون كانت نظراتهم تخترقه فى عتاب أو احتقار أو خـوف ، ولكنها كانت جميعاً تدينه ، غير أنه لم يكن يشعر بأحد ولا يعنيه أحد، كان يفكر فى أم رفعت .. هذا الجسد منذ متي لـم يقـترب منه ؟ واتته رغبة جادة نحوها .. ألقي نظرة إليها ، المكان لـم يعد فيه أحد غير امرأة معها ، متي تخرج ؟ ها هـي تخـرج ، قام نشطاً حث الخطى نحو أم رفعت ، لم تزل راقدة فى قميصها الشفاف ، سمعت صوت خطوات قامت فزعـة تسـتر جسـدها وكأنها أمام رجل غريب ، ابتسم لها فى ود وشبق معا ، ثم قـال وهو يقترب منها :

- لا أحد هنا من الأولاد .. كلهم فى المدارس

ذهلت من هول المفاجأة ، بدا الأمر لـها كأنـه اغتصـاب ، اقترب منها أكثر ، عينيه مزيج من الشبق والشـرر والغضـب معا، انقادت له مستسلمة فوق أرض الغرفة ، تشعر تحته بخـدر لذيذ ، هل ذلك الراقد فوقها أبو رفعت حقا ؟ هل هو بمثل هـذه القوة ؟

عندما أفاقت من نشوتها سمعته يهمس فى أذنها ؟ " سـأبحث من الغد عن عمل " .

شجرة الشيخ على

خرجت مبكراً ذلك الصباح إلي الحقل ، دون أن أتناول طعـام إفطاري لقد كنت غاضباً من أمي التى أخذت الأجرة كلـها دون أن تعطني منها شيئا ، علي الرغم من أنها ظلت تقنعني طـوال الليل بأنها فى حاجة إلي هذه الأجرة كي تكمل بها ثمـن كيلـو اللحم الذي ستشتريه غداً من السوق بمناسبة موسم عاشـوراء ، حتى نكون مثل بقية الخلق فلا يتطلع أحد من أخوتى الصغار إلي الناس ورغم اقتناعي وفرحي باللحم ، إلا أنني ركبت رأسـي ، وفى النهاية رضخت فانسللت من المنزل قبل شـروق الشمس آخذاً الطاقية وشمرة القطن .. وجدت نفسي وسط حقول القطـن البيضاء قبل أن يصل أحد من الأنفار ، كان الحقل الذي سأعمل فيه اليوم بالقررب من شجرة الشـيخ علـي ، وهـي شـجرة صفصاف عارية من الأوراق دائما ، يعتقد كثير من الناس أنـها مبروكة وحتى هذه اللحظة لا أعرف سر الارتباط بين شـجرة الصفاف والشيخ علي الذي يرقد فى مقامه الفقير عنـد مدخـل

العزبة ، والغريب أن الناس يعتقدون فـــي الشـــجرة أكـــثر مـــا يعتقدون فى المقام .

كانت الشمس علي وشك الولادة من رحم الجانب الشـــرقي ، أخذت أتأمل هذه الكرة الملتهبة وهي تميل قليلا إلي الصفـــرة ، (لم تكن المرة الأولي التى أشاهد فيها شروق الشمس) وفجـــأة قطع هذا التأمل تأوهات وربما همسات أنصت جيداً ، وأنا أمـــد بصري إلي بياض الحقول الشاسعة من حولي ، صوت امـــرأة ، أدعية تنتهي بعبارة الشيخ علي ، التفت علي الفور نحو شـــجرة الشيخ علي التى لم تكن بعيدة عني ، وجدتها أمامي عارية كمـــا ولدتها أمها ، فكانت قد انتهت لتوها من وضع جلبابها فوق جذع الشجرة ، ثم جلست القرفصاء رأيت ظهرها الأبيض يلمع تحـــت قطرات الماء الذي تصبه من إبريق أسود فخاري وهـــي تتمتـــم بالدعاء ، انتابني فى البداية خوف ماذا لـــو التفتـــت ورأتنـــي أراقبها ؟ حاولت أن أبعد نظرى بعيداً ، فلم أستطع ؟ هل كنـــت مأخوذاً بذلك البهاء الجسدى ؟ وإذا بها تلتفت نـــاحيتي ، ربمـــا أحست بوجودي ، إنها تناديني ، تطلعـــت إلـــي الشـــمس التـــى ارتفعت قليلاً الأن ، فعادت تنادي من جديد ، ولكن فى صـــوت ودود مما أشعرني بالطمأنينة :

- تعالي يا حبيبي .. قرب مني .

كالسائر نائماً اندفعت نحوها ، ناولتني الإبريـــق بيـــد ، فـــي الوقت الذي وضعت فيه يدها الأخري فوق قُبلها وقالت :

صب الماء فوق رأسي وأوعي تنسي تسمي ثم أردفت ..

- أوعي تقول لأمك يا حسين

فتذكرت علي الفور أمي ، ماذا لو عرفت ؟ كانت أمي تخشي من عين زينب ، وتعتقد أنها حسودة ، لذلك كانت تدعي أمامـــها أنني مريض وتمنعني من الذهاب إلي بيتها ، وعندما تقبلني تكتم غيظها وهي تتمتم ببعض كلمات من سورة الناس ، وقلت فـــــي انقياد :

- حاضر .

ثم نفذت ما أرادت . لم يستغرق الأمر دقائق ، وعندما أنتهيت أخذت تتأملنى ، ووجدتني لأول مرة أتطلع إلي عينيها ووجهها ، كانت الدموع تنسكب بغزارة علي وجنتيها ، وكان صوتها مختنقا بالبكاء :

- يارب .. يارب اضعني .. قل معي يا حسين

بكيت مثلها و كأنها نسيت نفسها أسرعت إلي الجلباب وارتدته علي الفور وهي تقول :

- لا تخف يا حبيبي

قلت :

- مش خايف .. لكن الأنفار نزلوا وخطي سيتأخر فضحكت،

وهي تقول :

– ولا يهمك سأساعدك .. المهم لا تقل لأمك شيئا ثم أخذتني في حضنها وأخذت تقبل خدي ، وعند ذلك سمعت صوت المقاول الأجش يصيح فى غضب :

– ولد يا حسين .. تأخر – خطك

أسرعت إليه وأنا أداري خجلي ولم أسلم من سخريته :

– ماذا كنت تفعل مع هذه المرأة المجنونة ؟

لم يدعني أجيب ، فواصل كلامه ، كأنه يعلم أنني لن أستطيع الرد:

– كنت بتحميها .. ما استحمتش معاها ليه ؟ .. مدد يا شيخ علي يا بتاع النسوان .

وأطلق ضحكة عالية فجة ، تطلعت حولي فى سرعة ربما كنت أريد أن أتأكد من خلو الطريق أمامي ، وبأقصي ماأستطيع ملأت فمى باللعاب وقذفته فى وجهه ، فألجمته المفاجأة ، وعند ذلك أطلقت ساقي للريح ، وبد خطوات سمعت صوته صارخا :

– الأجرة يا ابن الكلب .. سأخذها من دمك

لم استطع أن أذهب إلي البيت خوفاً من أمي ، وكدت أرجع إلي الحقل ، وقفت وسط الطريق الزراعية أتدبر الأمر ، هل

أعود ؟ ولكني خفت أن يضربني المقاول .

عرفت فيما بعد أن زينب ذهبت لتساعدني وعندما لم تجدنـــي وعلمت ما حدث ، نزلت مكاني وعملت بدلاً مني طـــوال ذلـــك اليوم .

تنويعات على لحن أسمه فاطمة

(١)

الضباب الكثيف يغلف البيوت الصغيرة المتناثرة فوق رقعة وسط الحقول ، يحيط بيا الماء من جوانب ثلاث ، أصوات العصافير فوق شجرة الكافور الوحيدة في العزبة تهلل لقدوم فجر يوم جديد ، وأنت تسيرين وحدك ، وأمام البوابة الخشبية الضخمة تتعوزين من الشيطان، وعندما يتقلب الحارس خلف البوابة في سريره الحديدي القديم مصدرا صوت سعال حاد ، تتنفسين الصعداء (ما زلت تخافين العفاريت يا فاطمة) وتتزن خطواتك ، رغم ثقل الحمل فوق رأسك ، ورغم ألم الرقبة المزمن ، لا تعلمين أن الحارس يرقبك – الأن – من شق صغير في البوابة ، ويعلم أنك في طريقك إلي الست أم محمد ، تلك الغريبة التى دخل زوجها السجن وترك لهاأولادا خمسة ؛ ها هي الشمس تبزغ ، فلتدخلي قبل أن يراك أحد ، ولكن الحارس سيأتي

بعد قليل لينال كوباً من الشائ الساخن ، وبعضـــاً مـــن خـــبزك أيضا.

(٢)

إنها شمس الظهيرة الحارقة ، الحقول خالية مـــن الفلاحيـــن ،حيث يقيلون تحت الأشجار أو داخل البيوت القريبـــة ، الأوراق الخضراء لأشجار القطن تميل إلي الزرقة ، هناك حقل واحـــد ، سقاه العم شحاته هذا الصباح ، بعد أن عاد من عمله الليلي فـــى المدينة ، أوراقه الخضراء نضرة لامعه تعكـــس بعـــض أشـــعة الشمس فوق وجه فاطمة ، التى خلعت نعليها وتسير فوق أرضـــه الرطبة ، تتحسس طريقها باحثة عن حبات القثاء علـــي جـــانبي القناة الرئيسية التى تتوسط الحقل ، جمعت حتى الآن ست حبات، لن تكفى الأولاد ، يجب أن تبحث عن حبات أخري ، فجأة تجـــد فاطمة نفسها خارج الحقل ، أتستمر فى طريقها ، رابطة حبـــات القثاء الست فى طرف شاشها الأسود أم تميل علي حقل أخيـــها إسماعيل الذي يبيع القثاء لأهل العزبة بسعر أعلي من سعر سوق المدينة ؟ هل ترددت فاطمة ؟ شرعت فاطمـــة تقتطـــف حبـــات القثاء، مكملة الطبخة . وعندما انتهت تماما ، رفعت يديها إلـــي أعلي وقالت : سامحني يا رب .

(٣)

تسيرين وسط الظلام ، تمسك الصغيرة " هناء " بذيل جلبابك الأسود الواسع تردد – خائفة – كل عدة خطوات : أمه .. أمه فاطمة ، بينما يستقر قدر الطعام الساخن فوق رأسك ، لابد من الحذر ،حتى لا يندلق الطعام فوق الأرض ويفتضح أمرك ، وتعرف ضرتك ، أنك تأخذين الطعام وتقدمينه للأغراب ، الذين أكلوا عقلك ، تتقدمين فى بطء من فتحة الشباك ، شباك غرفة الجلوس المفتوح دائما ، وتضعين القدر والخبز ، ثم تعودين وتطرقين باب المنزل الرئيسي :

سا الخير عليكو .

أين الأولاد ؟ بعد قليل يتحلقون حولك ، تفوح من أفواههم رائحة طعام ، هل ابتسمت ؟ ولكنك عند العودة – فى آخر الليل – ستحملين الصغيرة " هناء " فوق صدرك ، بينما تحمل إحدى يديك مصباحاً بترولياً مشتعلاً ، ولن يعنيك أن يراك أحد ، أي أحد .

(٤)

وحدك فى الفراش ، يحيط بك الذباب والناموس وأصوات الصغار تختلط بروائح كريهة لعرق نساء كادحات ورجال عائدين من الحقول ولم يغتسلوا بعد ، ضوء المصباح الكهربي أصفر واهن بلون المرض ، ومع ذلك يفضح غضون وجهك

المرهق ، تتناثر فوقه حبات عرق منطفئة كأنها فقاقيع دمامل صغيرة ، شعرك الرمادي تحت العصابة السوداء فوق رأسك تناثر بعضه فوق جبينك ، يخرج صوتك الواهن فتنتفخ الرقبة بسبب ذلك الورم الخبيث الذي بدأ منذ عشرين عاماً ، والآن ينتهي ، هل قلت شيئا يا فاطمة ؟

هل أشرت بيدك نحوي ؟

وهذه الابتسامة ، هل هي صلاتك الأخيرة ؟

لكن يبقي سؤال : لماذا تموت الزهور يا .. ؟

الثعبان ذو القرنين

طال مدّ الصمت فقامت أمي وهى تقول سأصنع لكم شــــايا ، وعند ذلك استأنف ضيفنا الحديث عن السيدة " س " قائلا :

هل فهمت ؟ .. إنها الآن عازفة عن كل أنواع المتع

ثم همس .

– إنها الآن مريضة .

انتبه أخي الأكبر وكمن كان غارقا فى حلم طويــــل ، وقـــال موجها حديثه إلي الفراغ من حولنا :

– هل هذه الحكاية صحيحة ؟

وكنا جميعا نعرف سر العلاقة بيـــن الســيدة " س " وأخـــي الأكبر، إنها حكاية أخري كانت علي كل لسان فى القرية والقرى المجاورة ، وسافر أخي إلي العراق ، وعـــاد ليجـد " س " قـد تزوجت من شخص غريب عن القرية ، لا يليق بجمالها ،ممـــا جعله يلوذ بالحزن ثم يعزف عن الزواج ، وعندما أثير حولـــها

كلاما يمس سمعتها التزم الصمت ولم يعلق بكلمة واحدة . والآن تثار حكاية الثعبان ذي القرنين الذي يشاهده كثير من الناس بالقرب منها هذه الأيام .

أقسم ضيفنا أن حكاية الثعبان حقيقة وأنه رآه بأم رأسه ، ولم يعلق أخي ، وعندما قام الضيف أشار لي أخي أن نخرج من المنزل ، سرت خلفه دون أن أسأله ، وفى منتصف الطريق ،أدركت أننا نقترب من منزل السيدة " س " وكانت هذه هي المرة الأولي منذ أن عاد أخي من العراق التى يسير فيها بالقرب من منزلها ، كانت تجلس فوق مصطبة طينية بجوار الباب الخارجي مرتدية ثوبا أصفر ، استطعت بالكاد أن أميز لون وجهها منه ، عيناها غائرتان ، وقف أخي فوقفت ، حياها بيده دون أن ينبث بكلمة ، ولم ترد أو تستجب بأية إشارة . ظل واقفا يحدق فيها للحظات ، وكان يتمتم بكلمات كأنها صلاة . فلم أفهم منها شيئا ، ثم استدار وتبعته عائدين إلي المنزل . وفى الطريق قال أخي موجها حديثه لي :

– هل رأيت الثعبان ؟

فقلت :

– لا

فدهش :

– كيف ذلك ؟ لقد كان بجوارها علـــي المصطبـــة ، قرنـــاه كبيران ، كيف لم تره ؟ فقلت محتجاً :

– لكنني لم أره .. اقسم لك أنني لم أره .

ربت أخي علي كتفي مهدئاً من روعي :

– اهدأ .. لا تنزعج

فقلت وأنا أكثر انزعاجاً هذه المرة :

ولكني لم أر الثعبان .. ولم أر قرنيه !

فقال وقد اكتسي وجهه بحكمة عميقة أعـــادت إلـــي نفســـي السكينة:

أصدقك .

وسرنا إلي المنزل يلفنا الصمت ، وقبـــل أن ندخـــل ، أتـــي صوت الناعي من سماعات المسجد القريب ينعي وفـــاة الســـيد "س"، وفى الوقت نفسه كان ضيفنا يقترب منا لاهثا ، لا أعـــرف كيف انشقت الأرض وأخرجته :

– لقد ماتت .

حدجه أخي بنظره طويلة ، فصمت علي أثرها ، ثـــم تركنـــا ومضى.

من مذكرات رجل افترش
الطريق ليلة الأحد

إذن فلأكتب همومي وأجتر أحزاني ، ولا يهم من يقـــرأ ولا من يسمع وأنت بعيد هناك تأكل و تشرب وتغني مثـــل بعــض الخلق .

أكره كل الأغنياء ، وكل الذين لا يعانون مثلي . أما هـــؤلاء الذين يذكرونني بنفسي فأنا أمقتهم، يسببون لي الهم والحزن وأنـــا لست ناقص هموم يا صديقي الأوحد ، أنت وحدك تفهم وتقـــدر ولذلك أنا أكتب لك لتقرأ ، فاقرأ أو لا تقرأ .

من إدارة لإدارة ومن موظف لموظف، ذلك طيب وهذا غبـــي .. وتلك تقدر الأمور وهذه سبب كل المصائب ،والأمـــور فـــى النهاية تسير فى مجراها الطبيعي ، ولكني فصلت !نعم فصلـــت

والفصل – كما تعلم – كلمة لها مدلول يحمل تراكـــم همــوم ثمانية عشر عاماً فى تاريخ حياتي ، لذلك فأنا حريص جداً علـــي التمسك أو الالتصاق أو التعشق أو .. سمه ما تشاء أليس كل ذلك عكس الفصل ؟ أكتب عرائض والصق طوابع ودمغـــات وبعــد التحية والرجاء والتكرم بالموافقـــة .. وتفضلـــوا بقبـــول فـــائق الاحترام ، مقدمه لسيادتكم العبد الفقير المحتاج الصعلوك مقبـــل الأرجل والأيادي ومدلك السيقان إن أردتم . وفى النهاية أنتظـــر وشكراً لكم .. ثم شكراً لله من قبل ومن بعد .

وأعود مسلوباً مهدوداً تاركاً الشوارع الرئيسية منفلتـــاً بيـــن الحواري ، أريد المحطة . تختفي المدينة الصاخبـــة بظاهرهـــا البراق المخادع لتقلب لي باطنها القذر فأتعثر فى الحفر والكـلاب الضالة والأطفال الصغار أشبه بقرود غابة بائسة ،والنساء فـــي داخل البيوت عجفوات كأعواد قطن جاف ينظرن الي فى حنـــق فأبادلهن نفس النظرة وتبتسم إحداهن ، ولكني غريب .

ثم يظهر لي من جديد وجه المدينه الصاخب ، النـــاس نحـــل دائر ، خيوطه ليست فى يدي وأنا ميت من الجوع ، ألعن المدينة ظاهراً وباطناً ، ليس فى الجيب سوي أجـــرة الطريـــق ، قلـــت لنفسي : نقسم البلد بلدين ، تركب القطار يا ابن الفقراء هذا ليـس عيباً ، من قبل لم يجد جدك الحمار ليركبه ، بل أركبـــه محمـــد علي برذعة وجعله يسير جنباً إلي جنب بجوار الحمار ، و هـــذه

حكاية قديمة لا يجب أن تذكـــر هنـــا ، ثـــم تشـــتري جريـــدة وساندويتش ، شاطر ومشطور وبينهما فول أو طعمية أو حتـــى ملح ، وهكذا فى هذا الزمن الردئ يمكنك بثلاثين قرشا أن تركب القطار وتعرف أخبار وادي النيل من الإسكندرية حتـــي النوبـــة وتأكل ثم تصل فى النهاية إلي بيتك سالماً ، إذا ليس فـــى هـــذا الزمن ضامنا مثل القطار ، للحظة أعجبتنـــي الفكـــرة وللحظـــة غيرت رأيى ، وهذا داء قديم – كما تعلم يا صديقى – فى عائلتنا ، فلولا تردد جدي ما ألبسه محمد علي باشا البردعة ، إذ كـــان عليه أن يحرك يده القوية ويصفعه علي وجهه ولكنه لم يفعل مع أنه كان أطول قامة منه ، ولكن تلك حكاية قديمة – كما قلت – لا يجب أن تذكر هنا ، وهكذا يا صديقي أخذت أتجول فى المدينة .

قلت فى نفسي فلنبدأ بباعة الصحف ، ووقفت مترددا . أهرش فى رأسي ، فحدجني الشاب الوسيم تبدو علي وجهه آثار النعمـــة بنظرة قاسية ، فقلت فى نفسي : لماذا يا غلام ؟ إنني أوازن فـــى الحقيقة بين أمرين هامين : تأكل أم تقرأ وهو سؤال قديم .. تقول لي أمى ساخرة : إعطني كتاباً لأني جوعانة ،معذور يا ولـــدي ، تلك ليست مشكلتك ، نعم هي مشكلتي أنا والمسكينة أمي . أمـــا أبي فمن المؤكد هو فى غاية النعيم " أكل ومرعي وقلة صنعة "

ومشيت إلي البائع الثاني ، لم أجده ، أعرفه جيدا " عم كريم " رجل طيب ، الفرش مغطي بالمشمع يا للبؤس ! الســـماء علـــي وشك أن تمطر ، فلتمطر ، مالي أنا والمطر ! قلت لنفسي معزيا،

ربما كان الرجل جائعاً مثلي ويأكل الأن . فعضني الجوع بشدة ، وسال اللعاب عندما رأيت أقراص الطعمية وبطرامانات المخلل فوق الحافة الزجاجية ، ولم أستطع المقاومة فتلك عادة قديمة فى العائلة ، وحكاية ابي تعرفها جيداً يا صديقي ، لقد كان أبوك معه .. المهم دلفت إلي داخل المحل وجلست خلف منضدة واطئة وأخذت أحدق فى الأشياء من حولي ذاهلاً ، ثم أفقت علي عينين مصوبتين نحوي ، انتفضت فبادرني الرجل ذو المريلة البيضاء النظيفة : طلباتك يا سعادة البيه .

هكذا مرة واحدة ، سعادة البيه ، ولا أكذب ، شعرت بنشوة تسري فى جسدي ، غير أنني سرعان ما وجمت ، وخفت أن يلحظ الرجل شيئا ، ابتسمت وخطر لي خاطر ، إذ قلت على الفور للرجل : أعطني القائمة ، اعتذر الرجل ، وعلي الأرجح ارتبك ، ليس هناك قائمة ولا يحزنون ، عليك أن تطلب ثم تأكل ثم تدفع ، وهكذا فعلت .

واحد فول بالسمن البلدي . واحد بيض مقلي . واحد طعمية.. واحد حلو وأكمل الرجل :

وحاجه ساقعة يا سعادة البيه .

فأومأت برأسي .. ثم أكلت وشربت وحمدت الله فى سري . وجاء وقت الحساب كنت قد دبرت الأمر . كان الرجل ذو المريلة يرقبني ، جاء مسرعاً يحمل فى يد بقايا الطعام ، فدسست

فى يده الثلاثين قرشا التى معي ثم تقدمت فى خطي جـاهدت أن تكن ثابتة متزنة من الشاب الجـالس خلـف المنضـدة العاليـة وأفرغت المحفظة أمامه ، فلم يسقط مليماً واحدامنها ، وتطلع إلي الشاب ذو الوجنة الناعمة الدسمة مستفهماً ، فأشرت إلي نفق بين الحائط والمنضدة وقلت .

سقطت العشرة جنيهات هنا .

مال الشاب بجسده كله باحثاً بعينيه ويديه فى النفق وملت أنـا قليلاً وسحبت من الدرج النصف مفتوح عشرة أخري ، وهكـذا أصبحت فى موقف أحسد عليه .

دفعت الحساب وأخذت البـاقي وسـرت مرفـوع الـرأس شامخاً ، مبتسماً داخل نفسي ، لاعناً فى ارتياح جدي الذي علقـه محمد علي باشا فى المحراث وأبي الذي أدخله عبـد النـاصر السجن ، وقلت لنفسي ، لو كانا مثلي لما كان هذا حـالي . فـى المساء عدت إلي قريتنا أحمل كيساًعلي ساعدي الأيمـن جلـب لوجه أمي الكئيب سروراً غير معهود .

عريس للجارة

وصلت إلي البيت فى الثانية بعد الظهر ، لم أجد أمـــي فـــى المنزل ، تناولت من جارتي المطلقة مفتاح البيـــت ، وشـــكرتها بالطبع ، فأنا كما تعلم دمث الأخلاق ، مؤدب ، خجـــول وقـــت اللزوم ، وبالجملة سمعتي طيبة ، انظف من الجنيه كما يقولون ، ولما أقول لك ذلك ، فأنت تعلم كل شئ ، المهم يا صديقي الأوحد أكلت ثم جلست أقلب فى الجريدة باحثا فى عناء ودأب تحت باب وظائف خالية ، ولما لم أعثر علي بغيتي ، غلبنـــي النعـــاس ، فقمت إلي السرير ونمت ولم أستيقظ إلا فى الثامنة مساء علـــي طرق جارتي علي الباب ، تسألني إذا ما كنت فى حاجة إلي شئ تطلعت إليها من أسفل إلي أعلي بعينين مجهدتين لا يزال يجثـــم فوقها أثار نوم كابوسي واحترت ماذا أقول لها ؟ فانا أريد كـــل شئ ، ينقصنى كل شئ ، حدقت فى جسدها اللين الريان خلـــف الجلباب الذي ترتديه فوق اللحم . قلت فى نفسي هذا اللحم هـــو

كل شئ ، ابتسمتُ وابتسمتْ هي الأخري ، وأظنها – المعلونة – فهمت ، شدت الثوب علي جسدها بحركة آليـة ، فانكشـف مـا انكشف وطار صوابي ، غامت الدنيا فى عيني فوجدتنى أحـدق فى جسد يغلفه ضباب كثيف ولما أفقت سمعت البـاب يصفـق بشدة، فعلمت أنها خرجت مسرعة .

جلست لاهثا فوق المقعد الوضيع خلف مكتبى ، وكنت أسـمع دقات قلبي سريعة متلاحقة تتصاعد من داخلي .. ورويدا رويـدا هدأت ، فلعنت الزمن والسنين والأيام وجارتى وأمها وأبي وأمي وأنت وكل الذين أعرفهم وكل الذين لا أعرفهم ! وكنت أعـرف أنني نمت ما فيه الكفاية ، ومع ذلك صعدت إلي السرير الحديدي الأسود لففت نفسي جيدا فى اللحاف ، مغمضا عيني ، ومغطيـا جميع أجزاء جسدي وقلت لنفسي ولكم يـا أولاد الفقـراء فـى الأحلام لنعمة كبيرة .

جاءنى أبي وقال أنت سبب نكبتى ، صرفت عليك دم قلبـي ، ودخلت السجن من أجلك ، ومن أجل العجفاء أمك .. هـا أنـا كسيح .. وكان يحمل سكينا فى يده ، عندما اقترب مني تأكد لـي أنها سيجارة ، وكنت قد امتعضت وأظنني صرخت .. غـير أن المؤكد أن إحدي قدمي كانت خارج اللحاف ، فأحكمت اللحـاف حول جسدي مرة أخري وأنا اشعر بلذة غريبة فـى اسـتجلاب الأحلام رأيت جارتي عارية على وسط دخان كثيف ، معلقة بين الأرض والسماء مثل كوكب على وشك السقوط ينسدل شـعرها

الأسود فوق ظهرها العاري وتبدو قدماها صغـــيرتين ، كـــانت تشير إلي بإحدى قدميها فــــانبطحت فــوق الأرض وأحسســـت بشعرها يغطي جسدى كله إلا قليلاً فأخذت أحدق فإذا أنا أحــــدق من ثقب حجرة باب أمي ، وأري أمي العجفاء عاريـــــة ، فكـــاد يغلبني البكاء ، إذ تبينت أن أمي ممصوصة عظم بـــــلا لحـــم . وعجبت كيف يكون ذلك ؟ فحدجنى الموظف ذو الشعر الأشــيب الجالس خلف المكتب القبيح فى احتقار هذه تعليمات يـــا ســـيد ! فصرخت ، الرحمة يا ناس ، وهنا اكتشفت أن قدمــــى الاثنتيـــن خارج اللحاف وأننى كنت أصرخ صراخاً حقيقيا .. ويبدو أننـــــي عدت لوعى فاستحال النوم واستحالت الأحلام ، فلعنت موظـــف شئون العاملين الذي لا أعرف غير اسمه الأول ، وتذكرت المرأة الجميلة التى كانت تجلس أمامه فلعنتها هـــي الأخـــرى . وهنـــا أدركت فقط لماذا تجهم فى وجهي وطردني من المكتــــــب ! إذن هي المرأة عليها اللعنة للمرة الألف ، وعلي أنا الآخر ، يا لغبائى .

تمزق اللحاف المتهرئ وبرد ديسمبر لا يرحم ، وزاد الطيـــن بلة شعوري بالجوع .. ماذا أفعل ؟ دبرني يا وزيري .

يحكى أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد ، أنه كـــــان فيمـــا مضى من الأزمان رجل فقير من العامة وكان فى سن الشـــباب وكان وحيدا فى بيته – ذات ليلة – بلا طعام ولا مأوي ، أبوه فى سجن الحاكم ، وأمه تعمل خادمة عند أحد التجار اليهود .. وأنــه

قرصه الجوع وآلمه البرد فبكي وأنّ وأشتكي وقال الجملة التى لا يرد قائلها .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

واتفق أنه فى ذلك الوقت كان اثنان من الجن يرقبانه ، رجل وامرأة يريانه دون أن يراهما ، قال الجان : مسكين وقالت الجنية: جميل الوجه ، لولا الفقر لبدا كقمر أربعة عشر كما يقولون عندهم ، أزوجه ابنتي ، وكان للجنية ابنة جميلة نصفها بشر ونصفها من الجن وكان للجني ابنة أيضا نصفها بشر ونصفها من الجن ، ولكنها قبيحة ولم يرض أن يتزوجها أحد من بني جنسها .

عند ذلك قمت مفزوعا أتصبب عرقا ، حمدت الله الذي أزاح عنى هذا الكابوس .. ولكني سرعان ما اكتشفت أن البرد يحاصرنى من كل جانب وضحكت وأنا أتخيل البرد رجلا يفتك بالناس الفقراء أمثالي ويستكين ويطأطأ الرأس للآخرين .

وفجأة فإذا بي وجها لوجه أمام جارتى المطلقة اللدنة وأمها العجوز التى كنت أعرف أنها أتت لزيارتها اليوم فى البدء لم أتبين شيئا مما حولي كل ما سمعته صوت العجوز وأحسست بيدها فوق كتفى .

اسم الله عليك وحواليك يا ابني .. الشر برة وبعيد .

أغمضت عيني خجلا ، كانت المرأتان تحيطان بى ، حاولت السيطرة علي نفسي ، تواردت علي خواطر عدة .. ماذا حدث ؟

هل ماتت أمي هل حدث حريق ؟ كيف دخلت المرأتان ؟ كتمـت كل هذه الأسئلة فى داخلي وبدأت أشعر بروح سلام فى الغرفـة أكده صوت جارتي متوددة .

– تبات معنا الليلة يا سي محمد ، دا أنت يا خويا عيان .

وأضافت العجوز :

– قوم يا ابني دا احنا أهل وأنا وأمك طول عمرنا أخوات .

فوجدتني أقول لها :

– تعيشي يا خالتي .

ولاحظت الارتياح علي وجه العجوز ، كل ذلك مر أمـامي كحلم ، لا أكاد أصدق نفسي ، كنت أداري نصفى الخلفي ببقايـا اللحاف ، وقيامي معناه انكشافي عري أمامهم .. وكـان إلحـاح المرأتين يكاد يزهق روحي ورغم ذلك قلت لهما سـوف ألحـق بكما ، وكنت أعرف أن أمي التى لعنتني ولعنت أبـي وجـدي وجميع أهلي والدنيا هذا الصباح لن تعود الليلـة بـل ولا بعـد أسبوع.

قامت المرأتان تجران ذيل خيبتهما ، تظنان أنني لن أذهـب إليهما ، وقمت بمجرد اختفائهما عن عيني ، ارتديت بنطلونا غير مكوي وقميصا قديما ولحقت بهما .

قابلتني جارتي علي الباب غير مصدقة ، تكاد تطير من الفرح

نحو أمها لتنقل لها خبر وصولي .

- سى محمد وصل .

وكنت أنا ابن الحواري - أعرف لماذا هي سعيدة فضحكـــت فى نفسي منهما وكانت ليلة شعرت فيـــها بـــالدفء لأول مـــرة وكانت التلميحات تكاد تفضح نفسها لتؤكد لـــي أننـــي عريـــس المستقبل ، ووجدتني لأول مرة أجاري المرأتين فيما تبغيان بينما تتدفق أنهار الشاى وأحمال الفواكه فى جوفى ، ومنذ تلك الليلـــة بدأت أشق طريقا جديدا فى الحياة وما زلت مندهشا لِمَ لمْ اكتشف هذه الطريق من قبل؟!

يوم حار جدا

أود – بدءاً – أن أخبرك أنني منذ الصبـــاح ، والســـاعة الآن تجاوزت السادسة مساءاً ، أحاول كتابة قصة قصيرة . لكن الجو هنا حار خانق ، صحيح أنا لا أتصبب عرقا ، أما هذه القطـــرات الملتصقة بجبهتي الآن ، فهي بسبب حرارة المصباح البـــترولي الذي أشعلته منذ دقائق فقط ، وقد سودت كثيراً مـــن الصفحـــات البيضاء النظيفة ، لقد ارتفعت أسعار الورق جداً هـــذه الأيـــام ، لذلك يجب أن أقتصد فى استخدام الورق لو كنـــا فـــى الشـــتاء لأشعلت النار فى هذه الأوراق واستمتعت بالدفء والنيران ، تلك عادة قديمة ، لكن الجو حار الآن ، ومن الحماقة فعل ذلك ، منـذ فترة بعيدة قرأت قصة " لوليام ساروبان " بعنوان " يوم بـــارد " يشكو فيها من شدة البرد فى سان فرانسيسكو وهـــو لذلـــك لـــم يستطع كتابة قصة قصيرة فى مثل هذا الجو ، وأنا علي العكـــس تماماً من ساروبان ، فرق شاسع بيني وبينه ، هو أمريكي وأنـــا

مصري . هل أدركت ذلك يا عزيـزي ، لكنـي معجـب جـداً بقصص ساروبان ، أرجو ألا تستنتج من هـذا – مثـل أغبيـاء النقد- أنني أستوحي قصصي من ساروبان ، أنت يـا عزيـزي تعرفني جيداً ، قلما يروق لي كاتب أو كتاب وعلي أية حال ربما غيرت رأيي فى ساروبان وقصصه فيما بعد .

لقد خطرت لي منذ الصباح أفكار كثيرة تصلح لكتابة قصـة جيدة ، بيد أنني كلما أمسكت بالقلم شعرت أنني غير قادر علـي كتابة شئ ، والجو شديد الحرارة هنا . قمت أكـثر مـن مـرة وصنعت أكثر من كوب من الشائ . تستطيع أن تقول أن هذا هو كل ما فعلته طوال اليوم لكن للأسف لم يستطع الشاى مسـاعدتي علي كتابة قصة قصيرة كما كنت أمل .

أشياء كثيرة خطرت لي فى هذا الجو الخانق . فمثلاً بدأت فى كتابة قصة قصيرة عن امرأة ترتدي جلبابا ريفيا علي اللحـم ، تواجهني من أن لأخر بصدرها العاري ونظراتها النارية ، لقـد مرت أمامي أكثر من مرة ، أعرف ماذا تريـد وأنـا مـتردد . يمنعني خجلي من تلبية رغبتها ، و رغبتي بـالطبع ، بعـد أن كتبت عدة صفحات وجدتني أمزق ما كتب وأرميه تحت قدمي .

الحقائق دائما مؤلمة يا عزيزي ، فى هذا الجو الحار تصفحت كومة الجرائد والمجلات الحديثة ، لم يثرني موضوع واحـد أو قصة جيدة . لقد اكتشفت أنني كنت أنبش فى كومة من القـش ، فلم ينالني سوي غبار علق بشعري ، وبعض أتربة استقرت علي

الأجزاء العارية من جسدي وجلبابي النظيف ، انطباع واحد فقط خرجت به ، الحياة أسوأ مما كنت أتخيل ، صدقني هذا كل ما خرجت به .

لم تساعدني بالطبع هذه المجلات والجرائد علي كتابة قصة قصيرة، بيد أنها جعلتني أتذكر قصة كنت أود كتابتها . أتذكر أن موضوعها كان عن الحياة فى مصر لماذا أصبحت هكذا ؟ الفكرة مبهمة أقصد لماذا أصبحت الحياة فى مصر سيئة هكذا ؟ .. هل فهمت ماذا أعني ؟ أنت صديقي الوحيد يا عزيزي ، ويجب أن تدرك ماذا أعني .

عندما كنت أسير – أمس – فى شوارع الزقازيق ، ولم يكن الجو حاراً ، لاحظت أن الإضاءة شاحبة فى المحلات ، ورغم الازدحام الشديد كان الصمت سيد الموقف . والفتيات الجميلات قليلات مثل العجائز تنقصهن الابتسامة . أما الرجال فقليلا ما كان يستوقفني أحدهم لأتأمله إنهم يتحركون بسرعة كدمي ، طبعاً فكرت وقتها فى كتابة قصة عن هذا الجو ، واستطعت فعلا أن أكون فكرة قصة ناجحة، يمكن نشرها علي الأقل فى جريدة محلية ، غير أنني أفتقد أدوات الكتابة ، يمكنك أن تقول أن تلك حجة واهية وهنا أستطيع أن أصارحك : لقد اكتشفت أن كتابة قصة عن هذا الجو فكرة سخيفة ، لقد حاولت يا عزيزي كتابة هذه القصة اليوم وفشلت . كانت بدايتها سخيفة يمكن أن أقرأها لك . ها هو سطر منها :

" لا أصدق نفسي .. هل هي تلك المدينة التى أحبــها ، مــن المؤكد أنني فى مدينة أخري " .

يخطر لي أحياناً أن أكتب قصة جميلة ، جميلـــة فحسـب .. ربما كانت خالية من أية فكرة جادة كالصراع الطبقى أو تحديـــد الملكية أو انتخابات مجلس الشعب أو الرقص الشرقى الأصيل أو انتشار المخدرات فىالسنوات الأخيرة أو حتى انخفـــاض ســـعر الجنيه المصري فى الأسواق العالمية ، أعـــرف أن مثـــل هـــذه الموضوعات الخطيرة لا يمكن الكتابة عنها فى هذا الجو الخانق، لذلك فكرت فى كتابة قصة عن فتاة فاتنة ذات شعر ذهبي وبشرة وردية وعينين جميلتين وجسد فوار طافح بالحيـــاة والرغبـــات القاتلة ، تحلم وترقص وتغني يتودد إليـــها الرجـــال ويحســـدنها النساء ، لكنني بعد أن عايشت الفكرة وبدأت صورة الفتاة الفاتنـــة تتجسد أمامي وجدتها تقفز أمامي علي طاولة الكتابة تقول لي فى توسل :

– لم أعد أرغب فى الحياة بهذه الطريقة .

فى الحقيقة دهشت لهذا القول ، وقلت ناصحاً :

– إن أي فتاة –فى مثل هذا الزمن الكئيب – تحلم بهذه الحياة.

هزت رأسها فى حزم قاطع .

– لا .

وبنفس طريقتها قلت .

– لماذا ؟

بيد أنني لم أنسي أن أمسح تقاسيم جسدها بنظرة فاحصة ولـم أسمع رداً ، لقد اختفت الفتاة من أمامي في لمح البصر وصحت:

– يا .. يا ..

وأخيراً صحت ..

– يا سلمي

ولكنها لم ترد ليس هذا حلماً يا عزيـزي ويجـب ألا تخلـط الأوراق وكذلك يجب ألا تندهش ؟! المهم يا عزيزي حـاولت أن أمسك القلم واكتب فلم أستطع كتابة حرف واحد . وكأني بيـدي شلت ، إنني فى حيرة من أمري يا عزيزي ، الشئ الوحيد الـذي أستطيع الكتابة لك عنه الأن هو حرارة الجو فى هـذه الغرفـة والمصباح البترولي الذي يزيد مـن ارتفـاع درجـة الحـرارة والأوراق المكدسة فوق طاولة الكتابة فى غير ترتيب ، أنتظـاراً لفكرة جديدة ، كتب ومجلات قديمة وحديثة متنـاثرة حولـي ، أكواب زجاجية فارغة ، علب أدوية نصـف ممتلئـة ، روايـة لجابريل جارسيا ماركيز لم تقرأ بعد ، مجموعة قصص لويليـام سارويان ، وأكوام من الكتب القديمة فى أركان الغرفة ، كومـة كبيرة من أوراق سودتها بيدي وسوف أحرقها فى الشتاء القـادم

كعادتي !

أكاد أختنق . درجة الحرارة فى ارتفاع مـــتزايد ، المصبـــاح البترولي جحيم لا يطاق ، كان يجب أن تكون عندي اليوم . لماذا لم تأت ؟ عندما تصلك هذه الرسالة سأكون متجولاً فى شـــوارع المدينة بلا هدف ، لكنني لن أفكر فى زيارتك . وربما زرتـــك . معذرة يا عزيزي حرارة الجو لا تجعلني أفكر بطريقة منظمة .

السقوط فى دائرة المحظور

-١-

ما عاد يحتمل .. إذن فليبح "

أكد بنفسه هذه المرة أن ما يحدث له لا يمكن السكوت عليه .. إلي متى يخفى علي أصدقائه حقيقة ما يحدث له ؟

لن يصدقوني ، فليكن ما يكون ، أنا لا أكذب ، وهم يعرفـون ذلك ، ولماذا لا يصدقون أن رجلاً يقتل فأرين - وهل هذا كثـير - يوم اثنين وعشرين من كل شهر ؟

سيقولون لماذا يوم اثنين وعشرين بالذات ؟ لكنني - مثلهم -لا أعرف . سأقول لهم لا أعـرف وسـيصدقونني . غـير أنـهم سيقولون نريد دليلاً ، أرنا الفئران .. لهم حق فى ذلك لأن قتـل فأرين مرة واحدة فى هذه الأيام أصبح مستحيلا رغم كثرتـها - هناك من يقول أن الفئران تؤلف فيما بينها جماعات سرية منظمة وأنا لا أصدق ذلك ، كل ما أعرفه أنها كثيرة .. كثيرة جداً - من حسن حظى أنني احتفظ بجميع الفئران التى قتلتها ، لن يستطيعوا فى هذه الحالة أن يكذبوني ، سيكون مشهدا مثيراً عندما يـرون

أربعة عشر فأراً قتلي قد تكوموا علي شكل هرم يعلوهم أصغرهم حجماً. فعلتها في سبعة شهور لأن ٢ × ٧ = ١٤ . وهم لا شك يحفظون جدول الضرب . سأضحك من كل قلبي عندما أراهم يرتعدون خوفاً من رؤية الفئران .. أنا لا أعرف لماذا ؟ " أنها كائنات لطيفة وجميلة " .

سأقول لهم ذلك ، سيقولون لماذا تقتلها إذن ؟ سأقول لهم .. ماذا أقول ؟ لأنني .. لأنني أحبها . سيقولون وهل هناك محب يقتل محبوبة ؟

سأقول لهم لأني أخاف عليها وأنتم كما تعلمون : حجرتي صغيرة سيئة التهوية ، لا توجد بها نافذة واحدة – ومع ذلك لا أعرف كيف تسللت الفئران إليها ؟ .. ربما لكي أقتلها ؟ – ثم أنها لا تحوي أي مأكولات غير الكتب . سيقولون قتلتها إذن لأنها تأكل الكتب . سأقسم لهم دون أن يسمعوا " وأنتم أدري بكتبكم " . سيتظاهرون بالغضب ولذلك سأنتهز الفرصة وأحكي لهم حكاية الفأرين يوم اثنين وعشرين من كل شهر من جديد .

علي أن أذهب إليهم الآن ، الساعة تقترب من الثامنة والنصف . توقيت مناسب سيكونوا كلهم حضور ؟ سأحكي لهم مباشرة ، لن أتردد هذه المرة ، سأحكى قبل أن تثقل رءوسهم بالشراب – رديئة هي الخمرة التى يترعونها – قلت لهم أن هذا نوع ردئ ويجب أن نغيره ، لكنهم .. سأحكي لهم عندما أصل مباشرة .

للأصدقاء قص حكايته مع الفئران ، دهش لرد فعلهم عندمـــا وجد الجميع بلا استثناء يصدقونه . بل سروا للحكاية من البدايــة حتى النهاية . شعر بالاطمئنان وزاده اطمئنانا أنهم لـــم يبـــدأوا الشرب بعد . ومن ثم أخذ يشرح كيف يمسك بالفأر ويقتلـــه دون أدني مقاومة منه ؟ وأنه يستخدم فى ذلك شيئا صلبا ، أي شـــئ ، يقذف به الفأر ، بمجرد أن يلمسه يضحي قتيلا . وأنه قد يقذفـــه بكتاب ردئ وأحياناً بحصوة كبيرة تسقط من السقف المتـــهالك ، وأنه فى المرة الأخيرة استخدم ساعته القديمة التى غلـــب فـــى إصلاحها .. كانوا ينصتون إليه بآذان متفتحة ، وعندما انتـــهي وساد الصمت الجميع ، نشط صاحب المنزل الذي يجلسون فيه .

ثم قال :

يوم اثنين وعشرين ؟!

– رد فى ثقة تغلفها ابتسامة قاسية وقد لاحظ نبرة شك فـــى لهجة محدثة :

– نعم يوم اثنين وعشرين من كل شهر .

– ليلا ..

– نعم وغالباً ما يكون ذلك بعد منتصف الليل .

نظر صاحب المنزل – وكان ضخماً – فى ساعته – ثم انتقـل ببصره إلي زوجته بادلته نظرات أذبلها القهر ، بيـــد أنـــه بـــدا

مرتبكا ، وكانت جميلة وذات رائحة نفاذة – المرأة الوحيدة وسط الحضور – قال صاحب المنزل وقد اختفى ارتباكه بينما كانت تعض – هي – شفتيها :

– لن نكون هنا يوم اثنين وعشرين

فقال بلا مبالاة ، وكان ثمة دم يتساقط من فم المرأة :

– لا بأس لا يزال فى حجرتى فئران كثيرة .

وهنا صاح صديق ، بدا أنه لم يستمع لما دار أمامه ، فى تهلل وسرور :

– فكرة مدهشة !

بارتياب نظر إليه صائد الفئران ولم يقل شيئا بينما استمر هو موجها حديثا إلي بقية الجموع الذين بدأوا ينتبهون لوجوده :

مكتب تصدير للفئران .

فكرة مدهشة!

صاح الحضور صيحة كورس مدرب ، فى حين نظر صائد الفئران إلي الأرض وقد خيل إليه هرم الفئران يعلوه أصغر فأر يكبر ويكبر حتى يساوى هرم خوفو . ثم بدأت البسمات تعلو الشفاه والضحكات تتراقص فى الهواء ، وارتدت المرأة بدلة الرقص ، ووقف صاحب المنزل يملأ الكؤوس للأصدقاء .

يحدث كل هذا وفجأة يقوم صاحب الفكرة المدهشة ليقول :

– خسارة ، فأران كل شهر لا يفتحان مكتبا .

– فعلا .

قال الجميع وهم يرفعون الكؤوس إلي حلوقهم . واستمرت المرأة فى الرقص وهي تقول :

– لا بأس

وقال صائد الفئران وقد أخذ الأمر كمجرد مزاح ، وهو يبتسم:

– فعلا .

عندما قاربت السهرة علي الانتهاء قام صائد الفئران ، وهو راضى عن نفسه تماما يكفى أنهم صدقوه لم يكن يريد أكثر من ذلك . كما أنه لم يكثر الليلة فى الشرب ولولا الحاج صديقه ، صاحب المنزل لما كان شرب .

–٣–

كانت الساعة تقترب من الثانية صباحا وهو في طريقه إلى حجرته وفئرانه ، الطريق موحشة وخالية من المارة والعربات ، زادها وحشة اختفاء القمر خلف سحابة صيفية رقيقة ، امرأة

ترتدي قميصا شفافا يبدو جسدها الأبيض الناعم خلف القميـــص فاتنا ومثيراً . ابتسم لنفسه وهو يتخيل القمر امرأة تصعد معـــه الحجرة .

بيد أن القمر احتج على هذا الأسلوب . بدأت السحابة تتقشـــع وأخذ القمر يسترد - تدريجيا - هيبته ويفرض ســـيطرته علـــي الطريق . أختفت المرأة وبدا فى الأفق رجـــل عـــاري الوجـــه والصدر يشع من عينيه بريق حاد .. لكـــن الطريـــق لا يـــزال موحشاً وصموتا .

أصوات يعرفها جيدا قطعت هذا الصمت الموحـــش ، تلفـــت حوله لم يجد شيئا . يرعبه صرير الفئران ، توقف عن الســـير ، أقشعر جلده وبدأت شعيرات نافرة فوق حاجبيه وعلي ســـاعديه وتحت ابطيه والثلاث شعيرات التى فى صدره تقف مؤيدة هـــذا الخوف " يرعبني صرير الفئران .. تطلع الي القمر فى توسـل . خجل من نفسه وعندما نظر إلي الأرض وجد فـــأرين يســـيران علي ذيلهما وأرجلهما الخلفية أمسك علي الفور حجرا . وجـــده أمامه ، وقذف الفأرين . اختفى الفأران . اختفى الفأران وتدحرج الحجر بعيداً ، وعندما اقترب منه ليمسكه من جديد وجده فـــأرا . ارتد إلي الوراء - " أخاف لمس الفئران " - خائفا ، بحث عـــن حجر أخر لم يجد وكان الفأران الأولان قد عادا إلي الظهور مرة أخري ، يسير أمامه ثلاثة فئران ، " شئ صلب أي شئ " لم يجد غير قلمه قذف به الفئران تحول إلي فأر رابـــع ســـار بجـــوار

الآخرين . قذف بكتاب فى يده الفئران الأربعة تحول إلــي فــأر خامس علي الفور " من المؤكد أنني أحلم " خلع حذاءه تحول إلي فأرين ، خلع معطفه الثقيل خلع بنطلونـــه .. خلـــع قميصـــه .. الطريق تزدحم بالفئران ، لم يبق غير ملابسه الداخلية ، الفئران تحيط به من كل جانب ، تحلقت حوله ، تسد عليـــه الطريـــق ، سقط مغشيا عليه .

أختفى القمر من السماء – عندما ســـقط – بينمـــا انســحبت الفئران فى صمت جنائزى . كبيرهم فقط هو الذي قال فى ثقـــة كادت تفيق صائد الفئران :

–هو المسئول ..ما كان يجب أن يبوح .

الملعونة

(١)

كان عليّ أن أرفض الذهاب إليه من الأول ، خاصـــة وأنـــا أعرفه جيداً ، منذ كنت عندهم فى السرايا ، كانت أيام وكـــان لا يزال طالباً فى مصر . لا يأتي إلا فى إجازة الصيف .. وهـــل أنسي ذلك اليوم . إذ دخل عليّ المطبخ وكنت نائمة وكان الجـــو شديد الحرارة فى شهر يونيه .. لذلك رميت جسدي مـــن شـــدة التعب فوق البلاط الأملس مرتدية ثوبا واسعا من أثـــواب ســـتى التى كانت تجود علي بها . فى البدء سمعت صوت أقدام تقـــترب منى ، غير أنني لم أبال ، وأظنه الشقاء ، شـــقاء العمـــل الـــذي جعلني لا أستطيع القيام . وما هي إلا برهة ، وإذا بجثة كبـــيرة فوق جسدي الملصق بالأرض العارية . كدت أصرخ ، لكنني لـــم أستطيع إذ كتم بيده فمي فى الحقيقة خفـــت الفضيحـــة ، إذ لـــن يتوقف الأمر علي طردي من السرايا ، بل سأصبح مضغة فـــى الأفواه ثم فى النهاية أقتل ككلبة مسعورة . أخـــذ يقبلنـــي وأنـــا مستسلمة خائفة أردد فى يأس : عيب يا سيدي . عيب ، بينما هو يقول أحبك يا سنية .. أحبك .. ولم أدر بنفسي بعد ذلك إلا أنـــه قام من فوقي خجلا ولطمني علي وجهي ففـــهمت كـــل شـــئ . وحمدت الله ، إذ لم يصبني بسوء ، وشعرت بالأسي له وقمـــت

من فوق البلاط رتبت ثوبي ولملمت شعري بينما أخذ المسكين فى البكاء .. وكنت أخاف أن تصحو ستي ، قلت له :

- استرني الله يسترك ولا يفضحك يا سيدي ..

فأعرض عني وسار يجر ذيل خجله ومن يومها وهو كلما رآني فى البيت أعرض عني وشعرت أنه بات يكرهني ولم يخلصني منه إلا زواجي من صالح العسكري الله يرحمه . ولما مات المرحوم عاد من جديد يطلب مني الغواية وها هو يرسل لي العجوز الماكرة .. ألا يستحي الرجل بعد أن كبر وتزوج ! لكن ماذا أقول : يموت الزمار وأصبعه يلعب .

قلت له :

- عيب يا سعادة البيه أنت رجل محترم .

فقال :

- دعيني أجرب يا سنية . لقد شفيت .

- لكن هذا عيب .

فضحك ضحكة خليعة وظن أنني قبلت :

- عيب .. يا بت .

وارتمي علي كصبى مراهق وأنا ثابتة فى مكانى أتلقي قبلاته وعناقه كصنم .. ثم أخيراً دفعته بعيداً عني فوقع وارتمي فوق

الكنبة وهو يلهث . وعندما استرد قوته . نظر لي نظـــرة كلـــها
عتاب وأسي . ذكرني بليلة المطبخ ، فأشفقت عليه ، أشفقت علي
شيخوخته وشبابه معا سحب زجاجة من تحت الكنبة وأخذ يلقـــي
بها في جوفه ، وكمن تذكر شيئا ، صب لي كأسا وقال : أشربي
وشربت .. ثم صب كأسا أخري ، وتوالت الكؤوس وكان هو قـد
ثمل فأخذي يهذي ويذكرني بأشياء أعرفها وأشياء أخري غريبة.
ثم شعرت برأسي يدور فوق رقبتي فنمت حتى رأيت الصبـــاح
لائحا من النافذة التى كانت قد تركت مفتوحة ، ففزعــت وكــان
الرجل نائما هو الأخر ، حاولت أن أوقظه لكن دون جـــدوي ،
قمت علي عجل فتحت الباب وخرجت من السرايا خائفة أخشـــي
أن يراني أحد . هذا ما كان قد حدث طوال ليلة الأمس .

(٢)

مشت سنية تتلفت حولها خشية أن يراها أحد فى ذلك الصبـاح
الخريفي الرائق وهى فى جلباب خفيف قديم يكاد يتهرأ من فـوق
الصدر وعند الأكتاف ، إنه فى الواقع رغم قدمه يكشف مفـــاتن
امرأة طاغية الأنوثة . ابتعدت عن السرايا بمسافة كبيرة وحمدت
الله أن أحدا لم يرها ، وكان الوقت لم يزل مبكـــرا ســـرت فـــى
داخلها نشوة ظفر وهي تتذكر الرجل العجوز يكاد يبكي : دعيني
أجرب .. سوف أتزوجك وأكتب لك البيت .

دعيني فقط .. وعاودتها نوبة الشفقة نحوه .. عدلت من وضع

جلبابها فوق صدرها وشدته إلي الأسفل بطريقة آليـــة وإعجـــاب خفي بجسدها اللدن وفى غمرة هذه المشاعر المختلطة ظهر فجأة كعفريت أرض " حنفي العبيط " أمامها . ذهلت وكادت أن تسـقط مغشياً عليها من هول المفاجأة .. فلما عادت لصوابها وتأكدت أن المائل فى بلاهة هو (حنفى العبيط) ضحكت من نفسها وعلـــي الفور عادت لها رابطة جأشها ، اقتربت منه وهطبت علي كتفــه فى دلال : يخرب عقلك يا حنفي..خضتني يا ولد ثـــم أطلقــت ضحكة أنثوية صاخبة وسط الطريق لكنها سرعان ما تداركـــت الأمر ، فعلا وجهها مسحة من الحزن العميـــق بتـــأثير الأيـــام والسنين المرة التى عاشتها وسط زمن وأناس لا يرحمـون . زاد مظهرها جدية الصمت والجد المرتسمان علي وجـــه العبيــط ، لأول مرة تراه هكذا ، نازعتها المخـــاوف ، وشـــعرت بنفســها مقبوضة فقالت : مالك يا حنفى .

لم يرد عليها وعندما استأنفت السير مشـــى خلفــها ، حتـــى أوصلها إلي المنزل ، ولم يكن بعيداً وعاد أدراجه يســـيح فـــى القرية بجلبابه القديم الممزق يبان من تحته الجلد وغابـــه مـــن الشعر فوق الصدر تثير حسد النساء وتذكرهن بأشياء خاصـــة ، أما الشعر فوق الراسي فقصير دائماً بينما الذقن نـــابت كحلفــة صيف برية .

دخلت " سنية " المنزل لتجد الأولاد نائمين . جرت نفسها إلي المطبخ فى تثاقل وأخذت تعد لهم فطور الصباح ، عمل بسيط لن

يستغرق دقائق بينما القلب مشغول بهموم الأمس وسنين طويلـــة مضت . فاجأها صوت إسماعيل الصغير وهو يجري نحوهـــا : كنت فين .. أنا عيطت عليكي . أخذته علي صدرها وقبلته قبلـــة أمومية وهي تمسح دموعه بيدها وقالت تهدئه :

– أنا كنت نائمة بجوارك يا حبيبي .

ثم تركته ينساب من بين يديها وهي تقول لـــه : روح صـــح أخوتك .

وبعد ذلك يأتي صوت مصطفى وأحمد : صباح الخــــير يـــا ماما .

صباح الخير يا أحمد .. صباح الخير يا مصطفى .

تكاد تكون تلك طقوس الصباح المعتادة ، منذ وفـــاة زوجـــها صالح العسكري . يفطر الأولاد ثم يذهب الكبيران إلي المدرســـة .. وعندما يلحان عليها تسمح لهما بأخذ الصغير معهما . خاصـــة عندما تكون ذاهبة إلي السوق .

(٣)

كان الأولاد في ذلك الصباح من شهر أبريل في مدرســـتهم ، وكان النهار لم يزل في أوله عندما دخل حنفي العبيط من البـــاب الموارب علي الشارع – دون استئذان كما هو المعتاد وجلـــس

فوق الكنبة الوحيدة فى مدخل البيت بينما كانت سنية تجلس علـي الأرض فى جلبابها الخفيف الذي جاءت به من السرايا ، تعبــث فوق الأرض المتربة بعود جاف من أعواد القطن ، فى البدء لــم تنتبه لوجوده ، يبدو أنها لما فوجئت به لم تغير من جلستها كان الجالس فوق الكنبة فى صمت يستطيع أن يــري فــى وضـــوح تفاصيل جسدها تحت الثوب الخفيف ، الصدر المكتنز يمتد فوقـه جيد مرمري عاطل إلا من الليونة وبعض حبات العرق الخفيفــة كحبات لؤلؤ نادرة . والعود ممشوق ينتهي بأرداف ممتلئة ، بيمنا يقبل الأرض فخذان مشرب بياضهما بالحمرة ، كشفت عن جزء منها دون قصد ، إنها الأنوثة الطاغية للمرأة التى خلبـــت لــب الكهل العاجز ، إنها الأنوثة الطاغية النهمة التى أثـــارت حســد النساء فى القرية فلاكت ألسنتهن الحكايات والأساطير حولها إنها الأنوثة الظالمة المظلومة التى جعلت من سنية امرأة العســـكري سنية الملعونة .

هل كانت هذه الأنوثة تعني عند العبيط شيئا ؟ هذا ما تساءلت به سنية نفسها ، وعند ذلك تحركت بحركة لا إرادية كشفت عــن جزء أكبر من فخذها ، ثم قامت وجلست بجوار العبيط وكالعــادة سألته : تأكل ؟ فهز رأسه بأن : لا ..

- تشرب شايا ؟

وكان منه نفس الجواب . واستمر مد الصمت بينما لم تتعــود منه ذلك ، فوق ذلك كان حنفي واجما ، أيكون العبيـــط لاحــظ

شيئا؟ أيشك العبيط فى مثل الأخرين ؟ وتقاطر عليها مـــد مـــن الأسئلة . حتى كادت تصيح فى العبيط تكلم ماذا تقصد بصمتك ؟ غير أن العبيط عاجلها وقذفها بالذي أثار جنونها :

- لا تذهبي إلي هناك مرة أخري .

فذهلت المرأة ، أن العبيط يتكلم فى جدية ، إذن هـــو ليـــس عبيطاً ، إنه يردد كلام الناس ، نفـــس الـــذي يقولنـــه ، امـــرأة العسكري لن تتوب ، امرأة العسكري لم تزل تحن إلي الســوايا . امرأة العسكري ملعونة سنية ملعونة ، لم تعد تـــدري بنفســـها . دفعت حنفي العبيط فأوقعته من فوق الكنبة وأخذت تضرب فيـــه بالحذاء وتصيح كالمجنونة ، وتهذي بكلام غريب لم تع منه شيئا، فبكي حنفي وانزوي تحت الكنبة وكــــان الجـــيران والمـــارون فىالشارع قد سمعوا صراخها فأتوا يهرولون حتى ملأوا البيت ، والكل يتساءل ماذا حدث ؟ إلا أن الإجابة كانت واضحـــة لـــدي الجميع ، لقد كان منظر سنية بشعرها المنكوش وصدرها النـــافر والذي اندلق منه نهداها خارج الثوب الذي تمـــزق مـــن فـــوق أجزاء كبيرة علي جسدها .

وانزواء حنفى وبكائه وترديده :

منك لله .

كان هذا الرد كفيل لإقناع كل متسائل بالإجابة ، وأن المعلونة لم تزل ملعونة .

(٤)

أضحي الشك يقيناً خالصاً فى قلوب الناس امرأة العسكري ملعونة وتستحق الرجم لولا وجود أولادها الثلاثة . لم تجد الملعونة غير حنفي ولي الله . لكن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وها هو قد فضحها .

(٥)

فى صباح اليوم التالي تناقل الناس فيما بينهم خبرين : اختفاء حنفى العبيط وموت عجوز السرايا الباشا السابق ، سليل الحسب والنسب ، رغم أنهم نظروا إلي موت العجوز كحادث عادي ، إلا أنهم كانوا يتحدثون عن اختفاء العبيط علي أنه اختفاء إلي الأبد . ثم اختلفوا فى تفسير هذا الاختفاء .

كان الشئ المؤكد لهم أن سنية ملعونة ، لذا سوف يستدعونها علي الفور – رضيت أم لم ترضي – إذا ما مرض مريض لتتخطاه سبع مرات فيبرأ بأذن الله .

مسعود لن يأتي الليلة

أرسلت مسعدة إلي مسعود الأعور زوجها الرد التالي :

.. " نحن بخير والحمد لله ونحيطك علما يا زوجنا الغـالي أن دواءك مر مذاقه ، قال الشيخ عيسي وأنه لا ينفع بل يضر وعليه خمر والخمر مسكر وكل مسكر حرام ونحن مسلمون وحتـى لا تغضب شربت منه ملعقة ، وإن شـاء الله يكـون فيـه الشـفاء ويعوض صبرنا خير " .

حرمكم المصون : مسعدة .

حاشية : لا تقطع الخطابات وأمك تعيش أنت .

كان مسعود الأعور قد أوصي حرمة المصون مسعدة – قبـل أن يسافر – أن تعتني بالمريضة أمه وأن تلبي لها كل طلباتها .. وأن تحضر لها الحلاوة الطحينية كل يوم ولا تبخل عليـها لأن

الخير كثير والحمد لله . وقبل كل هذا أن تعتني بنفسها وإن شـاء الله لن يغيب كثيراً هذه المرة . " لقد زهقت من الأسفار " قـال مسعود ذلك ذات يوم قائظ ، تركته مسعدة فيه ينام وحـده ، لـم تقصر مسعدة فى شئ وعندما يأتي بالسلامة سيشهد أهل القريـة بذلك وقد توفيت العجوز أم مسعود ولم يكن فى نفسها شئ قبـل أن تموت بدقائق كانت تأكل الحلاوة الطحينية ، وبعد أن دفنتـها أقامت لها سرادق عزاء حضـره كـل أهـل القريـة والقـري المجاورة. أما بخصوص الكلام عن الشيخ عيسى ومـا يقولـه الخبثاء من أهل القرية فهو كذب فى كذب .

علم مسعود بموت أمه فأبرق لهم فى القرية أنه سـيأتي فـى ظرف ثلاثة أيام .

انتظرت مسعدة أمام منزلها وتجمع حولها نساء القرية ، ومن بعيد كان يمر بعض رجال القرية يتشممون خبر وصول مسـعود الأعور . عندما انتصف الليل كانت نساء القرية قد تسللت واحدة إثر الأخري . وبقيت هي وحدها ، خطر لها أن تدخـل وتغلـق الباب علي نفسها والصباح رباح .. لكن أين الوفاء ! ماذا سيقول مسعود إذا جاء ووجدها نائمة ؟ .. عوي كلب بجانبها وتمتمت : اللهم أجعله خيرا ، رد كلب أخر علـي عـواء الكلـب الأول . زجرته بشدة ولما استمر فى عوائه رمته بفردة حذائها. عند ذلـك عزمت أن تدخل البيت وتقفل الباب علي نفسها وبـررت ذلـك لنفسها بأن البرد شديد ، لكنها تراجعت في اللحظـة الأخـيرة ،

قاومت النوم الذي بدأ يداعب جفنيها . ومع ذلك استسلم جفناهـا. غفت غفوة قصيرة – مسعود قادم يحمل شيئا فوق صـــدره مـا هذا؟ طفل الله طفل جميل . ولد ولا بنت ؟

بنت ! كنت أريده ولداً صحت من غفوتها ويدها فوق بطنها . استغفر الله العظيم اللهم اجعله خيراً . ابتسمت لنفســها عندمـا تصورت نفسها حاملاً بطنها أمامها ومسعود يقول لها لا ترهقــي نفسك يا مسعدة أنت حامل مرت بيدها علي بطنها وهــي تقــول " ليس بعيد علي ربنا .. ياه الساعة أصبحت اثنين " ثم دلفت إلي داخل البيت ومن دون تردد أغلقت الباب خلفها .

كانت المصابيح خارج البيوت المجاروة قد انطفأت . فقط كان ضوء خافت يتسرب كأنفاس مريض متقطعة من خلال النوافــذ الصغيرة غير محكمة الإغلاق ، ألقت بجســدها مرهقـا فــوق السرير الحريري فى غرفتها الأنيقة ، كانت وحدها لأن البنــت توحيدة لم تأت الليلة حاولت أن تنام . ذهب النوم مـــن عينيـها انصتت إلي دقات المنبه بجوارها فوق الكمودينو ، تك . تــك . تك . كانت دقات حزينة ورتيبة . فكرت أن تسكت هذه المنبـــه ولكنها لم تفعل ، تركته يدق . فى هذه الأثنـــاء ســمعت دقــات أخري فوق الباب الخارجي ، كانت دقات قوية غطت علي دقات المنبه . هذه الدقات ليست غريبة عليها . قامت من دون تــردد تفتح الباب وقبل أن تفتح الباب قالت :

– من بالباب ؟

قال الصوت فى ثقة ورجولة :

– أنا

– من أنت ؟

وهنا قال الصوت وهو أكثر ثقة ، وقد أدرك أنها وحدها :

– أنا الشيخ عيسي جئت كي أطمئن عليك .

تراجعت قليلاً إلي الوراء . ترددت تفتح أم لا تفتح ! لفت نظرها " زلعة " فارغة تقبع فى ركن من الصالة بدا جوفها مظلماً وعميقاً رغم ضوء المصباح الكهربائي المنتشر فى الصالة .. سرحت بفكرها لكن صوت المنبه من خلال باب غرفتها المفتوح جاء قويا : تك . تك .. " مسعود لن يأتي الليلة " ابتسمت لنفسها فى سخرية ثم توجهت تفتح الباب من دون تردد :

– مرحباً بك يا شيخ عيسي .

بسرعة دلف الشيخ إلي الداخل ثم أغلق الباب بنفسه . شعرت بيده دافئة رغم برودة الجو فى الخارج فى دفء نظرت إليه ثم قالت :

– تشرب شايا ؟

– لا .. لا داعي لن أشرب شيئا .

– إذن تأكل شيئا ؟

وقبل أن يجيب الرجل ، كانت ثم توجـــهت إلـــي الثلاجـــة – فتحتها – كان مسعود الأعور قد اشتري هذه الثلاجـــة فـــى أول سفرية له – مدت يدها خرجت بحبة كمثري ، وضعتها فى طبـق كان فوق منضدة صغيرة بجوار الثلاجــــة ، جــرت المنضـــدة ووضعتها أمام الشيخ عيسي . لم تكن فى حاجة إلي صوتـــها أو أن تتثنى فى مشيتها يكفي أن تتحرك أمامه حتى تثيره . كما وهو حكيم القرية أو بالأحرى حكيم النساء يعـــرف مســـعدة جيــدا . جلست بجانبه أقسم أن تأكل معه ابتسمت له وهي لا تزال تشـعر بدفء يديه عندما فتحت له الباب ، قامت وهي تتثني هذه المرة . بدا فعلا أنها مثيرة لدرجة أن الشيخ هم أن يسير وراءها لحظات وعادت – وفى يدها سكينا – وهي تتثني أيضا – يبدو أنها خففت من بعض ملابسها – جلست بجانبه وأخذت فى تقطيع الكمثري .

– جئت كي أقطع كلام الناس .

كان كلام الناس قد كثر وزاد علي لسان أهـــل القريـــة عـــن مسعدة والشيخ عيسي وعندما علم مسعود الأعور بذلـــك أراد أن يقطع كلام الناس فقال لهم " أعرف زوجتي وهي أفضل منكـــم " قال بذلك قبل أن يسافر وبعد أن سافر أيضا وكان ذلـــك بمثابـــة تصريح لمسعدة بأن تذهب للشيخ عيسي دونما حســـاب لكـــلام الناس . ثم أن الشيخ عيسي رجل طيب وأفضاله كثيرة علي البلد وكل أهل البلد وعلي يديه – بإذن الله ستنجب مسعدة مثلما أنجبت أخريات كثيرات ، وهو أفضل من دكاترة – أطباء – هذه الأيـــام

الذين يأخذون أكواما من النقود دون أي نتيجة .

عندما أصر مسعود الأعور أن تذهب معه إلي الدكتور فـــي المدينة قال للدكتور قل لها بنفسك أن النتيجة مئة فى المئة . ثـم كتب له بعض الأدوية وقال له انزل واصرفها من الصيدليـــة ، كانت أدوية نادرة بحث عنها فى جميع الصيدليات القريبة ولكنـه لم يجد إلا القليل منها . وبعد أن خرج مســعود قــال الدكتـور لمسعدة وكانت قد نزلت لتوها من السرير .

هناك أمل ضعيف جداً .. ويجب أن تساعديه بنفسك .

لم تسأله كيف تساعده لقد فهمت من كلام الدكتور أنه لا أمـل مطلقاً وعندما عاد مسعود قال لها :

لماذا لا تجعلي الدكتور يراك أنت الأخري .

أنا لا أكشف نفسي علي أغراب .

قالت ذلك وهي تغمز بطرف عينيها إلي الدكتور الذي شـعر بإشفاق كبير نحو الزوج مسعود الأعور فأجهض بسمة كان يـود أن يمنحها لمسعدة .

مسعود هو الذي ابتسم .. كان يردد فى داخله قوله الســابق " أنا أعرف زوجتي أفضل منكم جميعا " ! قبل أن يتسلل ضـــوء الصباح ماحياً سواد الليل وفاضحاً أسراره تسلل الشيخ عيســي خارجاً من منزل مسعود الأعور .

مرت ساعة أو أكثر وكانت الشمس تقف فى ركن من الأفـــق مضرجاً وجهها بالدم . وبدأ طرق آخر علي الباب ، بدأ الطــرق خفيفا ثم أخذ يقوي ولكن مسعدة لم تسمع ، كان الطارق مسعوداً، يبدو عليه الضعف والهزال . كان يحمل فى يده حقيبة صغـــيرة لا أكثر ، كان منهك الجسم مرهقاً . أخذ يردد وهو يطرق البـــاب بصوت عال بدأ فيه الضعف والإرهاق :

– مسعدة .. مسعدة .

لكن مسعدة فى عالم أخر . قـــال لنفســـه : الله يكـــون فـــى عونها.. كانت تنتظرني طوال الليل . عاد ليدق الباب بشدة هـــذه المرة . كان لا يريد أن يراه أحد بهذه الصـــورة . دفـــع البـــاب بكتفيه فكاد أن ينكفئ علي الأرض أدرك مسعود أن الباب غـــير محكم الإغلاق وأنه كان مخدوعاً . قال لنفسه : الله يكـــون فـــى عونها نسيت أن تغلق الباب .

دلف إلي الداخل . ألقي بالحقيبة الصغيرة فوق الكنبة بالصالة. ثم رمي بجسده المرهق فوقها . أراد أن يغفو حتى تصحو مسعدة من النوم . لا يريد أن يرهقها " الله يكون فى عونها " قال ذلـــك لنفسه مرة أخري . ولكنه شعر بالجوع بعد أن كاد يذهـــب فـــى النوم فتح عينيه . أبصر أمامه طبقا به قطع من الكمثري فـــوق المنضدة بجوار الكنبة ، وضعها فى فمـــه ، وجدهـــا ماســـخة . أعادها ثانية إلي الطبق دون أن يكمل أكلها . ثم تساءل هل ضيفا كان هنا . أبعد عن رأسه هذا السؤال ثم قال كأنه يكلم شـــخصا

يقف أمامه :

– ربما تطورت مسعدة وأصبحت تأكل بالشوكة والسكينة .

قال ذلك دون أن يبتسم ، ربما لأنه كان مرهقاً شعر أنه فـي حاجة إلي النوم أكثر من حاجته إلي الأكل اضطجع فوق الكنبـة ثم راح فى نوم عميق .

كان مسعود قد ترك الباب الخارجي مفتوحاً ونسي أن يغلقـه عندما دخل ولو كان التفت إلي باب غرفة مسعدة لاكتشف أنـه كان مفتوحاً أيضاً وليس فى حاجة إلي دفعة كتف كي يفتح علـي اتساعه فيدخل وينام بجوارها من دون أن تشعر أو علي الأقـل دون أن يزعجها .

عندما استيقظت مسعدة من النوم وجدت مسعوداً يغط فى نـوم عميق فوق الكنبة فى الصالة اقتربت منه ، حملقت فيه مندهشة ، وعادت لتحملق فيه ثانية . اكتشفت لأول مرة أن زوجها لا يري بعينيه اليمني ، وأنه أعور – حقاً – كما يقـول أهـل القريـة . تناولت قطعة كمثري أخذت تمضغها فى تـأن ولـوت رأسـها وعادت لتكمل نومها .

الطائر الذهبي

حط الطائر الذهبي الضخم الكبير فوق شجرة التوت العاريـــة أمام البيت الصغير ، كانت شجرة ضخمة كبيرة لا تثمر ، وليس لها في ذلك ذنب : وما ذنبها إذا كانت ذكراً لا أنثـــي ، وكـــانت تميل فوق البيت الصغير بفروعها فلا تحميه من برد الشـــتاء أو تقيه من حرارة الصيف ، أما الطائر فكان له جناحان من ذهـــب وأرجل رفيعة وطويلة من ذهب ، ومنقار هو أجمل ما فيه مـــن ذهب ، وشجرة التوت والبيت الصغير ليسا من ذهب - أســـنانه فقط هي التي لم تكن من ذهب كانت حمراء كالدم ، والفتـــاة لا تحب اللون الأحمر ، وهي في ذلك حرة ، هـــي تحـــب اللـــون الأخضر وكل الأطفال والفتيات يحبون اللون الأخضر .

في كل ليلة يحط الطائر الذهبي فوق شجرة التوت العاريـــة .. تراه الفتاه تفزع : طائر من ذهب : .. طائر من ذهـــب ، يفتـــح فمه تري الفتاة اللون الأحمر تصـــرخ : دم .. دم وتـــدور فـــي

الحجرة تبحث عن أمها .. تريد أن توقظـــها ، يجبرهـــا الليـــل الصامت علي السكوت ، تنقاد له فى هدوء ثم تتوســـــد ذراعـــه وتنام.

-٢-

قالت الأم وهي تعرف أن كلامها لن يغير من الأمر شيئا .

لكن البنت لا تزال صغيرة يا أسطي سيد .

وكان الأسطي سيد مشغولاً عنـــــها بفـــرز الأوراق الماليـــة المكدسة أمامه فوق منضدة خشبية قديمة بثلاثة أرجل ، أردفـــت تقول :

والبنت فى المدرسة متفوقة .. خسارة .

وكان الأسطي سيد الذي هو زوجها أبو الفتاة كاد أن ينتـــــهي من فرز الأوراق المالية واستمرت تقول :

رجل كبير عجوز والبنت لا تزال صغيرة علي الزواج .

تطلع الأسطي سيد إلي زوجته فقالت فى فزع :

لكن عنده نقود (فلوس) كثيرة .

فقال فى اطمئنان وسرور بالغين وهو يعيد ترتيـــب الأوراق المالية .

- وهي ليست مزيفة .

الفتاه مثل كل الفتيات تسمع الأصوات والكلمـــات ولـــم لا ؟ وهي ليست مصابة بالصمم ومثل كل الفتيات تـــري بعينيـــها ، وعيناها سليمتان بهما تقرأ دروسها وتنجـــح فـــى أخـــر العـــام الدراسي وبهما تري الطائر الذهبي كل ليلة فوق شجرة التـــوت العارية .

سمعت الفتاة أباها ، ورأت أمها .

قالت الأم : لديه فلوس كثيرة وعربيات وبيوت .

قالت الفتاه : وله جناحان من ذهب .

قالت الأم : وعنده ذهب

قالت الفتاة : وأرجل من ذهب

قالت الأم : يعود ومعه ذهب وملابس

قالت الفتاة : أسنانه حمراء .

قالت الأم : حمراء وخضراء وصفراء

قالت الفتاة : يقف علي شجرة التوت .

قالت الأم : توت .. توت . سيأتي غدا

قالت الفتاة : هو

فى المساء أوت إلي فراشها ، فتحت عينيها وأخذت تتطلع إلي شجرة التوت العارية تنتظر الطائر الذهبي أن يـــأتي ، ويحــط فوقها .. كانت تريد أن تقول له : أنها لم تعـــد تخــاف اللــون الأحمر ولا الدم يسيل من فمه .

أخذت الفتاة تنتظر وتنتظر ولكنه لم يأت .

-٤-

كانت قبلة الوداع الأخيرة قبيل ركوب الطائرة مبللة بدمـــوع الفراق الأبدي ، تشير إلي طائر صغير أخضر سيذبح فى القريب فى بلد بعيد .

يا زمان الوصل

عندما تأكدت أنني ابتعدت عنه ، وأفلت من يده تذكرت مطلع موشحة " لسان الدين الخطيب " المشهورة فأخذت أردد مطلعـــها بصوت خافت لم يسمعه المتلصقون بجسدي وسط الزحام . وكان المكان أشبه بأزقة القاهرة القديمة المنسدة مـــن أحـــد طرفيـــها فانتابني خوف شديد وعلـــي رأي المثـــل [اللـــي يخـــاف مـــن عفريت يطلع له] وجدته مرة أخري - فجأة - أمامي أخذت ذيل جلبابي فى فمي وجريت فى الاتجاه المواجه ومن حسن الحـــظ كان الشارع مفتوحا أمامي وخيل لي أن لازحمة فى الشـــارع ولا ناس بالمرة ، لكنه كان خلفي ، يكاد يمسك بي ، شعرت بـــالتعب وكنا قد اخترقنا شوارع عديدة ، لكنه لم يزل خلفي ووجدتني مرة أخري أردد مطلع الموشحة ولكني فى هذه المرة كنت أصـــرخ صراخا مرعبا، لفت نظر المارة إلينا ، ظنـــوا أنني بجســـدي النحيف الممصوص أستغيث ، حاولوا أن يوقفونـــي ولكنـــهم فشلوا ، بيد أنهم نجحوا فى الإمساك به ، ابتعدت عنه وعنهم وأنا أشعر ببعض الأمان ، فإذا بشيطاني ينفرد بي قائلا وهو يلـــهث مثلي :

استلق فوق الرصيف وادع الإغماء أو الموت .

علي الفور كظمت غيظي ، أنا أعرف الخبيث فاستمر يقول :

وسينقلونك علي الفور إلي أحد البيوت أو إلي المستشفي دون وعي .

قلت :

-خاص أم عام ؟

فابتسم فى خبث وهو موقن بالنصر ..

- المهم أن تبيت بعيداً عنه .

كادت أن تروق لي الفكرة ، ولكني عدلت عنها بمجرد اختفائه ثم لعنته وأنا أستعيذ منه بـالمعوذتين والصمدية وأسماء الله الحسني ، وسرت بجوار الرصيف الذي كان يبرق بريقا شديدا ، وكأنه ميضة مسجد كبير ، شعرت بسكينة قلبية كأنني فى مقام الحسين أو مقام السيدة ، ولفحت أنفي رائحة ذكية لبخور هندي ، ثم عبق الجو من حولي بالبخور حتى كأنني أسبح فيه ، فجأة من وسط هذا الدخان ظهر لي شبح فى ملابس بيضاء حريرية ، لحيته خضراء كعنقود عنب نباتي ، يرتدي فوق رأسه " لاسه " صفراء كالبرتقال ، وكالغريق الذي يتعلق بقشة ، ناجيته :

- سيدي .. أنا مظلوم .

لم يرد وأشاح بوجهه الذي بدا كرغيف خبز محروق ، فقلت متوسلاً :

- مظلوم يا أبي صدقني .

وشرعت أسرد له ما حدث ، فأشار بيده أن ألزم الصمت ، فلم أستطيع أن أنبس بحرف حتي أنه خيّل لي أنني خرست ، فانكمشت مدخلاً بعضى فى بعضى ، وأنا أنظر إليه باستعطاف ، وعلي غير توقع مال علي ومسح بيده علي خدي ، وهو يقول بصوت غريب شاذ :

- نم يا حبيبي .

وعوض أن أغمض عيني فى نوم عميق ، وجدتني أنتفض فجأة - وإثر ضربة شديدة علي إليتي اليمني - قائماً لأجد نصفى الأسفل عارياً ورجلاً فى منتصف العمر يشخط فى صائحا :

- مفيش حياء .. اتلموا بعيداً عنا .. قرفتونا .

زعرت وفكرت علي الفور أن آخذ ذيل جلبابي فى فمي وأجري ، لكن شيئاً كان يمنعني من فعل ذلك ؛ إذ خلف الرجل أمرأة - أظنها زوجته - تحمل طفلاً صغيراً كان علي صدرها تلقمه إحدى ثدييها ، ما أدهشني أنها كانت تبتسم ، بينما أنا أشعر بالخجل ، لأول مرة ، وقفت لا أبدي حراكاً ، فعاد الرجل يصيح:

- مستني إيه . غور من هنا .

فقلت علي الفور وأنا أوزع نظراتي بالتساوي عليـــه وعلـــي المرأة :

- حسنة يا بيه .

تلجلج الرجل ، كما لو كنت أطالبه بدين ، فأخذت ألـــح فـــى عنف مشوب بالبكاء :

- حسنة يا بيه .. حسنة لأهل الله .. مدد يا أم هاشم .

وهنا عند هذه العبارة الأخيرة التى كنت أنطقـــها لأول مـــرة ضجت المرأة بالضحك حتى كاد الطفل ينزلق من فوق صدرها ، وقف الرجل مثلي يعجب من فعل زوجته ، ثم أسرع يتلقي الطفل من يدها فأسرعت أعدو من أمامها ، يطاردني ضحـــك المـــرأة الصاخب ، ودهشة الرجـــل الغـــاضب ، وقفـــت غـــير بعيـــد أرقبهما..وكنت أتساءل لماذا جريت ؟ لقد كان الرجل فظاً ، إنـــه يدفعها أمامه إلي مدخل العمارة .

مشيت علي مهل ، أشعر بألم فى فخذي الأيمن ، لم يفـــارقني منظر المرأة وهي تضحك يبظ إحدي ثدييها من فستانها الضيق ، بينما يقف الرجل كالمصعوق لا حول له ولا قوة ، ساخطاً يحمل الطفل بين يديه ، وشعرت بالجوع أيضا ، هنا ظهر لي شـيطانى مرة أخري ، ورغم عدم ثقتي فيه رحبت به ، ربما لأنني كنـــت

فى حاجة إليه بالفعل ، قال :

- أنت جوعان .. أليس كذلك؟ وتعبان .. هل تريد أن تـــأكل أكل ملوك وتنام نوم الملوك ، وتشرب ماءاً مثلجاً ..

وأخذ يعدد لي أصنافاً وأصنافاً ، قاطعته وعقلي مـــع المـــرأة وزوجها :

- أخشي أن توقعني فى مطب .

تبسم اللعين ابتسامة نصر وقد أيقن منى الموافقة !

- اتبعني ولا تقل شيئا .

ثم اختفي ووجدت قدماي تسوقاني إلي المكان الذي أيقظنـــــي فيه الرجل ، قلت لنفسي :

إن لم يكن شيئا تنم هنا حتى الصباح ، افترشـــت الرصيـــف المبلط وتوسدت يديْ وأنا أشعر باطمئنان . كنت أعرف أن أبـــي إما أنه قد عاد إلي زوجته .. وإما أنه سيبيت فى القسم .

رغم شعوري بالأمان كان شيئان ينغصـــان علـــي نومـــي : الجوع والبرد ، كانت الأضواء خافته فى الشـــوارع ، وبـــدأت خيمة الليل السوداء تلتهم ضجيج المدينة ، فتذكرت موشحة ابـــن الخطيب وبدأت أغني :

جادك الغيث إذا الغيث همي   يا زمان الوصل بالأندلس

أشتد علي الجوع والبرد ، لم أقدر علي الأول ، أمـــا الثـــاني فاحتميت منه بمدخل العمارة ، بحثت عن البواب فلم أجده فـــي مدخل العمارة الأجوف ، بدا لي أن صوتي سيكون أجمل فأخذت أغني وأنا أتأوه من الألم ، وسرعان ما اندمجت فى الغناء ، وإذا بشباك يفتح ، ومن خلال ضوء خافت تبين لـــي وجـــه المـــرأة الباسم، نعم هي نفسها التى أيقظني زوجـــها ، كـــانت تبتســـم ، تذكرت شيئا وشعرت بشهيتي مفتوحة للأكل ، إلا أن فرحتي لـــم تتم ، إذ فجأة فتح باب وظهر الرجل الذي كنت قد نسيته تمامـــا وصاح الرجل :

– خائنة .

وفى أقل من الثانية كنت فى يده كعصفور بلله المطر ، ذهلت لم يتوقف الرجل عن الصياح ، إلا بعد أن خرج أغلـــب ســـكان العمارة من جحورهم ، لاحظت البسمة تعلو وجوههم ، وإعجاب خفى يكنونه لي وخاصة النساء ، عند ذلك تذكرت زوجة أبـــي وهى تضربني علي إليتي العاريتين . لكن أحداً لم يفعل شـــيئا ، كل ما حدث بعد ذلك أن جاء عسكري ببدلة سوداء وسحبني مـــن يدي وكنت أعرف أنه ذاهب بي إلي القسم ، وكان أشد ما أخشاه أن أجد أبي هناك ؛ فصحت فى فزع :

– أبويا

عند ذلك تلقيت ضربة حقيقية علي وجهي ؛ إذ صرخ أبي :

– نم جاك بوّ .

فنجان قهوة باردة

يقول لي صديقي : هل تلعب الطاولة ؟

أهز رأسي وأقول له : أن للطاولة لعبتين كنت أعرف إحداهما ولعبتها مرة واحدة والأن نسيتها .

يعود من جديد يسألني : هل تلعب الديمونو ؟

أهز رأسي نعم ثم أحدثه عن : اليك والدو والجهار .. وأؤكـد له أنها ألفاظ فارسية يك يعني واحداً . دو يعني اثنيـن ، جـهار تعني أربعة وكنت أود أن أتعلم الفارسية ولكني فشلت كما هـو الحال معي فى تعلم اللغات الأجنبية ثم أحدثه عن الإنجليزية وأن الأمريكان يتحدثونها بطريقة مختلفة واليهود لا يحبون الإنجليزية ويريدون أن يتعلموا العربية وأننا لدينا عجز فى مدرسي اللغـة العربية ويوقفني صديقي بيده ويبدو أنه قد نفد صبره لكنه يعـود ويسألني : هل تلعب الكوتشينة ؟

أسأله أنا : هل الكومي يكسب إذا كانت كـــل الأوراق علـــي الأرض ؟

وأنسي أنني السائل وأبين له لماذا سمي الكومي بـــالكومي ؟ ولكن لا أعرف لماذا كانت ورقة الكومي سبعة ؟ لماذا لا تكـــون ورقة الكومي ثمانية أو تسعة أو عشرة فعندما لا يجيب ويتـــوه بصره فى سقف المقهي المطلي بالزيت تكاد تخفيـــه ســـحابات الدخان الكثيف تبدو وسطها اللمبات الكهربائية كنجـــوم مختنقـــة وينشغل بالفتاة التى تبتسم لنا علي الطاولة المقابلة تبدو شـــفتاها الحمراوان كشق جرح حديث تطرأ فى ذهني فكرة : كان الكومي سبعة لأن السبعة رقم مقدس السماوات سبع والأرضـــون ســـبع وعجائب الدنيا سبع ونحن سبعة إخوة لا يوجد بيننا بنت واحـــدة وكنت أتمني أن تكون لي أخت لكي تكلم " سهام " من النـــافذة أو تذهب إليها – عندهم فى البيت لا مانع – وتأتي عندنا " ســـهام " أراها وأكلمها وأقسم لها أنني أحبها بإخلاص .

يتركني صديقى أرشف القهوة باردة وأجدها لذيذة رغم ذلـــك وأراه يخرج من المقهي – دون أن يودعني وقد تعلقت الفتاة فـــي ذراعه نحلية صغيرة تلم ردفيها الصغيرين فى بنطلون قصـــير محبوك ينزل أسفل الركبتين بقليل وحذاء دون كعب فى قدميـــها يظهر منه الجورب قصيراً متسخاً بياضه وبشكل لافـــت للنظـــر تبدو الفردة اليمني من الجورب أقصر من اليسري " حداية تعلقت بغراب " أقول لنفسي واكتشف أن القهوة لم تكن لذيذة !

أصفق بيدي يأتي الجرسون أضع علي الطاولة بضعة قروش وقبل أن يصلني أخرج وعند الباب التفت إلـــي الــوراء أجــده يرمقني بنظرات شزراء أتذكر علي الفور أنني لم أترك له علـــي الطاولة بقشيشاً ، يخطر لي أن أؤنب نفسي قليلاً وعندما أتـــرك المقهي وأصبح فى الشارع أكون قد نسيت الصديق والفتـــاة ذات الفم المشقوق كجرح حديث ولكن للقهوة الباردة يبقي طعم فـــــى فمي .

لن أقلع عن هذه العادة

١- بطاقة بيانت شخصية جداً :

أسمى موجود بالضبط أنا موجود موجود موجود ، وهو أيضا الاسم الثلاثي كاملا . لي من العيون اثنان ، ومن الأقدام اثنـــلن . وأيضا لي لسان وأتمتع فوق ذلك بحاسة شم قويـــة جـــداً ، وإن كنت لا أستخدمها !

حاشية : تتمتع الكلاب بحاسة شم قوية جداً، وهذا يجعلني فى غاية الحرج !

٢- لن أقلع عن هذه العادة .. التلصص :

لجارتنا أم رفعت جسد امرأة لن تمنعونـــي مـــن التصريـــح باسمها. قالت لي أفعل ذلك ولا تخـــش الحكومـــة . الطمـــاطم أرخص ما فى قريتنا من أشياء ، ويقولون بعد ذلك هناك أزمـــة ويطالبون بخفض الأسعار ! لن أفعل ذلك مطلقا . فخذاها يبدوان

خلف الثوب الرقيق الذي ذابت أزهاره الملونة الصغيرة بفعل الشمس والماء والغسيل ، وهما ملفوفان كأنبوبتين ملئا بمعجون أسنان ذا رائحة نفاذة مثل عرق النساء المترفات . لم تعر لي فخذيها يوما ، ولكني أستطيع أن أري كل الأشياء – وقد رأيت بالفعل – من ثقب الباب ودون حاجة إلي نظارة مكبرة . يفصلني عن جارتي. أم رفعت – باب خشبي رقيق يتكون من ضلفتين غير سمكتين من خشب رخيص لولا الثقب الكبير الذي بجوار حفرة المفتاح – والذي فى الباب دائما أجده – لما رأيت شيئا ولجارتنا – أم رفعت – نهدان ، لم أرهما بارزين أبدا! متدليان إلي الأسفل دائما فوق صدرها يمتدان . لم أر من جارتي – أم رفعت – غير هذين: فخذيها ونهديها ، أما ما دون ذلك فقد سمعته من الناس والطرقات المظلمة ، وحدثتني عنه الأسواق المزدحمة والقطارات وعربات الميكروباص التى تجوب شوارع قريتنا غير المرصوفة .

٣- لن أقلع عن هذه العادة .. الثرثرة :

أتحدث كثيرا ، عن كل الأشياء ، عن السياسة والاقتصاد واجتماع القوي وافتراق الأمم وتعاطي المخدرات وحبوب الهلوسة ، وأنا لست ثرثارا ، الناس يتكلمون ! أنا وزوجتي نتحدث فى السياسة بصوت مرتفع . مالي أنا وقلق الجيران .هم أيضا يتحدثون فى السياسة .. لكن لماذا بصوت منخفض يتحدثون ؟ لماذا يهمسون ؟! ورغم ذلك لن تمنعوني :

سمكة صغيرة + سمكة صغيرة + سمكة صغيرة = أســـماك صغيرة .

وسمكة كبيرة + سمكة كبيرة = سمكتين كبيرتين . وســـمكة واحدة كبيرة تأكل أسماكاً صغيرة وما يتبقي صفر ! .

٤- لن أقلع عن هذه العادة .. السير علي الأقدام :

ألف مدينة وألف قرية وألف نجع وألف كفر وألف عزبـــة ، وحواري وأزقة وميادين كثيرة دست فوقها وغصت فى عمقها . لاحظت أن اللافتات الكبيرة المضيئة – وهي كثيرة الوجـــود – تثيرني ، تنفض العروق فى رقبتي وخلف أذني ، ويعاود الـــدق القديم رأسي ، فأسير غيظاً ، وأسير هرباً ، وأســـير وحـــدي . النساء فى الشرفات العالية بأذرعهن المليئة ورقابـــهن الغليظـــة وأحمر الشفاه فوق شفاههن تلال يقفن وقد مال نصفهن الأعلـــي فوق رأسي – أنا – الذي أسير فى الشوارع حافى القدميـن أزرق الشفتين لا أطيق أحمر الشفاه ألف رأسي بأعلام ملونة حمـــراء وخضراء وسوداء والساعة القديمة فى معصمي تدق فى صمـت وخفوت ، أسمعها تئن ، ولن أقلع عن هـــذه العـــادة وســـأطرق الأبواب وإن توقفت ساعتي القديمة لأسأل عن الوقـــت والزمـــن ومواعيد العمل فى مصالح الحكومة !

٥- البكاء .. ليس من عادتي :

لم أعد أملك غير الدموع فلأبك وأبك وأبك . دموعي قطرات دافئة سخينة كلبن الجاموسة دعوها ترويني ، دعوهـــا تـــروي

صحراء امتدت عبر سنين عمري المقتول بين فكي الزمن ،

٦- لن أقلع عن هذه العادة الجديدة .. الضحك

أنا لست مجنوناً ، أقسم أنني لست مجنوناً ، وما الضرر فـــي أن أضحك كثيراً ، الناس كلـــهم يضحكـــون ، فـــى الشـــرفات والطرقات والمقاهي والنوادي وفى مصالح الحكومة وعند بـــاب الوزير وبين المكاتب وبين أعواد الذرة وفى الشـــقق المفروشـــة والمؤجرة وخلف المكاتب وتحت المقاعد وفوق السحاب وعنـــد المساء وعند الظهيرة ووسط المقابر ولضحكهم رنين !

فهرس

المؤلف

- من مواليد الشرقية فى ٧ أكتوبر عام ١٩٦٢ .
- ليسانس آداب ١٩٨٥ .
- ماجستير فى الآداب ١٩٩١ / جامعة الزقازيق .
- دكتوراه فـــى النقــد الأدبـــى الحديــث ٢٠٠١ / جامعــة المنصورة .
- نشر العديد من القصص والمقالات والبحوث فى الصحــف والمجلات المصرية والعربية .
- **له قيد النشر :**

١- الفن القصصى عند فاروق خورشيد (سلسلة كتابــات نقدية – الهيئة العامة لقصور الثقافة) .

٢- توظيف التاريخ فى أدب سعد مكاوى .

٣- شعراء النبي (ص) .

٤- فى الثقافة الإسلامية .

٥- دراسات فى القصة العمانية الحديثة .



رقم الإيداع بدار الكتب
٨٤٩٧ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-6072-6-2
دار الإسلام للطباعة والنشر
٠١٢٢٦١٤٣٦٢ - ٢٢٥٠٤٥٢ / ٠٥٠